

*Clifford Geertz | كليفورد غيرتز

**Translated by Aoumria Soltani | ترجمة عومرية سلطاني

محاضرة فارقة: مناهضة مناهضة النسبية***

Distinguished Lecture: Anti Anti-Relativism

ملخص: يناقش كليفورد غيرتز في هذه المقالة مناهضة مناهضة النسبية، وغرضه ليس الدفاع عن النسبية؛ بل نقد مناهضة النسبية بوصفها خطاباً. ثم يلحوظ كيفية تصور الأنثروبولوجيا على أنها مصدر كل الشرور بسبب ارتباطها بالنسبية الثقافية. فيتساءل عن أسباب ظهور هذا الخطاب، ويحتاج بأن الأنثروبولوجيا، تاريخياً، لم تكن حقلًّا نسبياً، ولم تكن النظرية الأنثروبولوجية، بوصفها كذلك، هي التي جعلت الحقل يبدو كأنه حجة ضخمة ضد الإلحادية في الأحكام الإدراكية والجمالية والأخلاقية، بل كانت البيانات الأنثروبولوجية. وفي هذا الصدد، تستكشف المقالة ردّي فعل رئيسين تسمان مناهضة النسبية: محاولة العودة إلى مفهوم مستقل عن السياق عن "الطبيعة البشرية"، مع التركيز على مفهوم الانحراف الاجتماعي؛ ومحاولة العودة إلى مفهوم آخر ذي صلة هو "العقل البشري".****.

كلمات مفتاحية: النسبية، النسبية الثقافية، الأنثروبولوجيا، الثقافة، الطبيعة البشرية، العقل.

Abstract: In this article, Clifford Geertz offers a rigorous critique of anti-relativism. He does not seek to defend relativism so much as criticize anti-relativism as a discourse, deriding the association of anthropology with cultural relativism. He questions the reasons for the emergence of this discourse, and argues that, historically, anthropology was not a relative field, nor was it anthropological theory that has made the field seem to be a massive argument against absolutism in thought, morals, and esthetic judgment, but rather anthropological data. In this regard, the article explores two main reactions that characterize anti-relativism: the attempt to reinstate a context-independent conception of "human nature", with an emphasis on social deviance; and in turn to reinstate the "human mind".

Keywords: Relativism, Cultural Relativism, Anthropology, Culture, Human Nature, Human Mind.

* أستاذ العلوم الاجتماعية في معهد الدراسات المتقدمة في برينستون، الولايات المتحدة الأمريكية (1926-2006). Professor of Social Science, Institute for Advanced Study in Princeton, US (1926-2006).

** مترجمة جزائرية.

Algerian Translator. Email: omriasoltani@gmail.com

*** هذا النص ترجمة عن الإنكليزية للدراسة المنشورة في:

American Anthropologist, New Series, vol. 86, no. 2 (June 1984), pp. 263-278.

**** المترجمة The Translator

أولاً

لا ينفك الباحث وقتاً وجهداً أفضل من طرقه ما يُرعب. وما أود السعي وراءه هنا هو النسبيّة الثقافية. وليس همّي النسبيّة لذاتها، إذ هي بين ظهرينا مثل أسطورة ترانسيلفانيا Transylvania⁽¹⁾، بل الرهبة غير المؤسّسة المرتبطة بها. وهي بلا أساس، لأن العاقد الأخلاقي والفكريّة التي يفترض عموماً أنها تنسل من النسبيّة - مثل الذاتية، والعدمية، وانعدام الاتساق، والميكافيلية، والبغاء الأخلاقي، والعمى الجمالي وغيرها - لا تنبع منها في الواقع الحال، ولأن العوائد التي يفترض أن تتأتى من الإفلات من قبضتها، والمتعلقة في الغالب بمعرفة أكثر نقاطاً تُعدّ مضللة.

لكي أكون أكثر تحديداً، ليس في نتني أن أدفع عن النسبيّة Relativism، فهذا مصطلح قُتل بحثاً على أيّ حال، وقضية خيّبت بشأنها معارك الأمس، بل هدفي أن أهاجم مناهضة النسبيّة Anti-Relativism، التي يبدو لي أنها تشهد صعوداً واسعاً وتتّخذ شكل نسخة مبسطة عن خطأ قديم⁽²⁾. فأيّاً كانت النسبيّة الثقافية أو أيّاً كانت أصولها (وليس ثمة واحد في المئة من منتقديها يعرف ذلك)، فإنّها تُستخدم هذه الأيام شيئاً لإبعادنا عن طرائق معيّنة في التفكير لدفعنا في اتجاه آخر. وبما أن طرائق التفكير التي تُدفع عنها تبدو لي أكثر إقناعاً من تلك التي تُدفع نحوها، وبما أنها تتميّز إلى قلب التراث الأنثروبولوجي، أود أن أطّرقها في هذه المقالة. وشأن ذلك شأن طرد الشياطين؛ لا مناص من أن نمارسه، لا أن ندرسه فحسب.

يهدف العنوان الكاشف، الذي اخترته ليكون مرآة أقدم من خلالها هذا الجهد، إلى مواجهة وجهة نظر بدلاً من الدفاع عن وجهة النظر التي تدّعى أنها تتعارض معها. وقد دارت في ذهني عند اختياره مماثلة - منطقية، وليست تتعلق بالجوهر، ولذلك أثّق بأنّها سهلة الاستساغة - هي ما سُميّ، في ذروة أيام الحرب الباردة (ولا شك في أنكم تتذكرون ذلك)، "مناهضة مناهضة الشيوعية". وهي لقب أطلق على من عارضوا منا بشدة ما اعتقدنا أنه هوس بالخطر الأحمر، وقد أطلقه علينا من عدواً هذا الخطر حقيقة مركبة في الحياة السياسيّة المعاصرة، مع تلميح - غير صحيح في الغالب العظيم من الحالات - مفاده أننا كنا، بموجب قانون النفي المضاعف The law of the Double Negative، نحمل شيئاً من المودة السرية تجاه الاتحاد السوفييتي.

(1) منطقة تاريخية في رومانيا، أو الإمارة الأسطورية التي ارتبط بها اسم دراكولا، الأمير الذي تحول إلى مصاص دماء. ويقدر ما تبدو المدينة واقعية على الأرض، تزداد حكاياتها الرمزية والفاتحية رسوخاً في الأسطورة والخيال. فالمنطقة، صعبة التضاريس، شكلت طریقاً صعب المثال أمام العثمانيين في سعيهم نحو الغرب. وواقعياً، كانت المنطقة المفتوحة فعلاً في اتجاه الغرب المتقدم والمستثير أمام شرقها المتأخر الغارق في الخرافات. ورمزيّاً، دم دراكولا رمز يحمل التلوّث إلى الدم النقى. وهنا مصدر الاستعارة في هذا النص؛ إذ الخوف من النسبيّة غير مؤسس تماماً مثل الخوف من منطقة. (المترجمة)

(2) في كتاب تاريخ عن الأنثروبولوجيا Une histoire de l'anthropologie، يقول روبار دو ليج Robert Deliège في الفصل الذي يخصّه للكليفورد غيرتز، إن غيرتز يفضل البقاء غامضاً حين يتعلق الأمر بالحسن بين رؤيتين، وإنّه يُكثّر من استخدام الأقوال المأثورة للتّدليل على أحكامه. يصدّق هذا النص بالفعل على هاتين الملموظتين. فغيرتز لا يفصل هنا في قضية النسبيّة، بل يقاربها من زاوية معاكسة. وفي النص استعارات كثيّفة وأقوال مأثورة واستعانة بإحالات من الأدب. وسيلاحظ القارئ أننا آثروا في ترجمتها أسلوبين؛ البحث في معناها العميق بما يلائم سياقها وكثافة الرمز فيها، وترجمتها حرفيّاً بحسب موضعها في النص ومقصد المؤلف. الإحالات الكثيرة على النص تبع الغرض نفسه من هذا الهاشم، وهو المساعدة في تبسيط النص وتقريره للقارئ. (المترجمة)

أعيد القول إنني أستخدم هذه المماثلة بالمعنى الشكلي؛ فلستُ أعتقد أن النسبيين شأنهم شأن الشيوعيين، ولا أن مناهضي النسبية هم مثل مناهضي الشيوعية، ولا أن أيّ شخص (أو لا يكاد أيّ شخص) يتصرف مثل جوزيف مكارثي⁽³⁾. يمكننا أن نبني مماثلة مشابهة باستخدام الجدل بشأن الإجهاض. فمن يعارضون منا القيود القانونية المتزايدة على الإجهاض ليسوا، فيما أراه، مؤيدين للإجهاض، بل نحن "مناهضون لمناهضة الإجهاض" لأسباب أخرى لا تحتاج إلى سردها. في هذا الإطار، لا يعمل النفي المضاعف بالطريقة الاعتيادية، وها هنا تكمن جاذبيته البلاغية؛ إذ يمكننا من رفض شيءٍ ما من دون أن نلزم أنفسنا بما نرفضه، وهذا تحديداً ما أريد أن أفعله مع مناهضة النسبية.

لا مناص، إذًا، من مقاربة هذه المسألة برويّة، عبر التفسير والتبرير شيئاً فشيئاً، لأنّه كما يخبرنا الفيلسوف وعالم الأنثروبولوجيا جون لاد⁽⁴⁾، "جميع التعريفات الشائعة [...] النسبية صاغها معارضوها [...]" وهي تعدّ تعريفات مطلقة⁽⁵⁾. (ينصب تركيز لاد المباشر على كتاب إدوارد ويسترمارك Edward Westermarck⁽⁶⁾ الشهير؛ لذلك فهو يقصد "النسبية الأخلاقية" على وجه الخصوص، لكن الفكرة هاهنا عامة: في حالة "النسبية المعرفية" يمكننا أن نحيل على هجوم إسرائيل شيفлер⁽⁷⁾ على توماس كون Thomas Kuhn⁽⁸⁾، وبشأن "النسبية الجمالية" نحيل على النقد الذي كاله واين بووث Wayne Booth⁽⁹⁾ لستانلي فيش Stanley Fish⁽¹⁰⁾). وكما يقول لاد أيضاً، فإن نتيجة ذلك هي أن النسبية، أو أيّ شيء يبدو مثل النسبية تحت هذه التعريفات العدائية، يجري تعريفه بالعدمية⁽¹¹⁾. فإن تقول إن الأسس "الصلبة" للأحكام

(3) سياسي جمهوري أمريكي وعضو الكونغرس في خمسينيات القرن العشرين. مصدر شهرته هو ادعاؤه، في ذروة الحرب الباردة، بأن المتعاطفين مع الاتحاد السوفيتي يتخللون الحكومة الأمريكية نفسها، بل امتدت ممارساته بناءً على هذا الادعاء إلى المتفقين خارج الدوائر السياسية. لذلك سُوّيت المكارثية في المخجلة العامة، بالاضطهاد الفكري والثقافي. (المترجمة)

(4) فيلسوف وأثربولجي أمريكي، اهتم خاصة بالصلة بين الأنثروبولوجيا والأخلاق. (المترجمة)

(5) John Ladd, "The Poverty of Absolutism," in: *Edward Westermarck: Essays on His Life and Works*, Acta Philosophica Fennica 34 (Helsinki: The Philosophical Society of Finland, 1982), p. 161.

(6) فيلسوف وسوسيولوجي فلندي اشتهر بدراساته عن الزواج وعاداته والتابوهات المتعلقة به، لا سيما سفاح القربي. أشهر كتابه: The History of Human Marriage الصادر عام 1891، وصدرت الترجمة العربية بعنوان موسوعة تاريخ الزواج عام 2001، عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر في بيروت. وكتب أيضاً أصول الأفكار الأخلاقية وتطورها The Origin and Development of the Moral Ideas عام 1906. (المترجمة)

(7) Israel Scheffler, *Science and Subjectivity* (Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1967).

.The Language of Education شيفлер هو أستاذ الفلسفة والتعليم في هارفارد. صدر أشهر كتابه عام 1960 وعنوانه اللغة في التعليم (المترجمة)

(8) مفكر وفيلسوف أمريكي متخصص في فلسفة العلوم وتاريخها، ورائد من رواد فكرة التراكم العلمي، صاحب الكتاب الشهير عن بنية الثورات العلمية. (المترجمة)

(9) Wayne Booth, "A New Strategy for Establishing a Truly Democratic Criticism," *Daedalus*, no. 112 (1983), pp. 193–214.

بوث هو أستاذ الأدب والنقد الأدبي في الولايات المتحدة، اشتهر بدراساته عن البلاغة والسرد القصصي. (المترجمة)

(10) ناقد ومنظر أدبي أمريكي اهتم خاصة بنظرية التأويل والسبب في اختلاف القراءات أو الاستجابات للنص الواحد، وإذا ما كان القارئ يخلق النص بدلاً من اكتشافه. سأّ مصطلح "الجامعة المُؤوّلة" Interpretive community. (المترجمة)

(11) Ladd, p. 158.

الإدراكية أو الجمالية أو الأخلاقية قد لا تكون متاحة، أو إن تلك المقدمة مشكوك فيها على أيّ حال، يعني أن تجد نفسك متّهمًا بعدم الإيمان بوجود العالم المادي، وبالتالي أن المتع واحدة ⁽¹²⁾Pushpin as Good as Poetry، وأنك تعتبر هتلر مجرد شخص ذي ميول غير اعتيادية، أو ربما مثلما وصفتُ أنا شخصيًا، "حاشاي" [بلا] رأي سياسي على الإطلاق⁽¹³⁾. إن الفكرة التي مفادها أن الشخص الذي لا يتمسك بآرائك يحمل آراءً تعاكسها، أو ليس لديه رأي ببساطة، ومهما كانت مريحة لمن يخشون من أن الواقع سيختفي ما لم نؤمن به بشدة، لم تُعن على تلمّس ضوء الموضوع في نقاش مناهضة النسبية، بل انتهت إلى عدد كبير جدًا من الأشخاص الذين قضوا وقتًا طويلاً جدًا يسبّبون في وصف ما لا يؤيّدونه مقارنةً بما قد يكون مفيدًا.

لكل هذا صلة مباشرة بالأنثروبولوجيا؛ لأن فكرة النسبية، التي لم تُعرَّف على النحو الصحيح، هي التي أربكت السلام الفكري العام بطبيعة الحال. فمنذ البدء، حين كانت النظرية في الأنثروبولوجيا لا تزال تطورية، أو انتشارية، أو تدرس الأصول الأولى *Elementargedankenisch*، وقبل أن تصير نسبية، كانت الرسالة التي اعتقدنا أنها نحملها إلى العالم الواقع هي أن ثقتنا برأينا وأفعالنا الخاصة، وعزمنا على حمل الآخرين على تشارُكها، قد قامت على أساس غير صحيحة، ما دام الناس يصرُّون الأشياء على نحو مختلف ويفعلونها بطريقة مختلفة، سواء أكان في الأسكا أم في أونتركاستو ⁽¹⁴⁾Entrecasteaux. وهذه الفكرة أيضًا تُفهم على نحو سيئ. فلم تكن النظرية الأنثروبولوجية، على النحو الذي هي عليه، هي التي جعلت حقولنا يبدو مثل حجّة ضخمة تُسايق ضد الإلحادية في الفكر والأخلاق والآحكام الجمالية؛ بل كانت البيانات الأنثروبولوجية التي جُمعت، مثل الأعراف والجماجم وأرضيات المعيشة والمفردات اللغوية. إنّ الفكرة التي مفادها أن فرانز بواس ⁽¹⁵⁾Franz Boas وروث بندكت ⁽¹⁶⁾Ruth Benedict وملفيل هيرسکوفیتس ⁽¹⁷⁾Melville Herskovits، بمساعدة أوروبية من ويسترماك، هم من أصابوا حقولنا الدراسي بفيروس النسبية، وأن الفرد كروبر ⁽¹⁸⁾Alfred Kroeber وكاليد كلوكهون

(12) هي عبارة للفيلسوف جيرييمي بثام عن المفعة أو اللذة المتأتية من المفعة. والـPushpin هنا هي لعبة بين الأطفال تقضي بأن يحاول كل واحد منهم غرز الديبوس في جسد الآخر مرّاً. (المترجمة)

(13) Paul Rabinow, "Humanism as Nihilism: The Bracketing of Truth and Seriousness in American Cultural Anthropology," in: Norma Haan et al. (eds.), *Social Science as Moral Inquiry* (New York: Columbia University Press, 1983), p. 70.

(14) بلدة فرنسية تقع في الجنوب الشرقي لفرنسا. (المترجمة)

(15) من أوائل الأنثروبولوجيين الأميركيين، ويمكن عده أباً النسبية الأميركي في الأنثروبولوجيا؛ إذ تلّمذ على يديه عدد من علماء الأنثروبولوجيا المعروفيين مثل ألفريد كروبر، وإدوارد ساير، وملفيل هيرسکوفیتس، وروث بندكت، وما رغرت ميد. (المترجمة)

(16) مساعدة بواس، وُشّد أول امرأة في تاريخ الإثنولوجيا. علت شهرتها بعد نشر كتابها *أنماط الثقافة* *Patterns of Culture*. (المترجمة)

(17) أنسوبولوجي أمريكي اهتم بدراسة ثقافات الأفارقة في الولايات المتحدة، واعتنى بمفهوم التناقض. أهم كتبه أسس الأنثروبولوجيا الثقافية *Les Bases de l'anthropologie culturelle*. (المترجمة)

(18) أنسوبولوجي أمريكي من الرواد، اهتم خاصًا بالعلاقة بين الثقافة وعلم الآثار، واهتم بانتشار الثقافات بين المراكز الثقافية. وهو تلميذ فرانز بواس. (المترجمة)

روبرت ريدفيلد⁽¹⁹⁾ Clyde Kluckhohn و Robert Redfield⁽²⁰⁾، بمساعدة مماثلة من كلود ليفي-ستروس Claude Lévi-Strauss⁽²¹⁾، قد جاهدوا للتخلصنا منه، ليست سوى واحدة من الأساطير التي تفسد هذا القاشر برمتها. بل حتى مونتين⁽²²⁾ تمكّن من استخلاص استنتاجات نسبية، أو ذات مظهر نسبي، حين أخبر، مثلما سمع، أن الكاريبيين لا يرتدون بناطيل قصيرة⁽²³⁾، ولقد لاحظ ذلك من دون حاجة إلى أن يقرأ كتاب *أنماط الثقافة* Patterns of Culture. وقبله بزمن طويل، توصل هيرودوت إلى وجهات نظر مماثلة، مثلما نعتقد، وهو يفكّر في "بعض المهدود من الجنس المسمى كالاتين Callatians"⁽²⁴⁾، الذين قيل إن الرجال بينهم يأكلون أجساد آبائهم الموتى⁽²⁵⁾.

إن التأثير بالنسبة، أو على نحو أكثر دقة الأنثروبولوجيا المتأثرة بالنسبة، المبثوثة في أوصال من يتعاملون أكثر من غيرهم مع مادتها وبياناتها، كامنٌ في الحقل في حد ذاته ضمناً، وربما في الأنثروبولوجيا الثقافية على وجه الخصوص، وكذلك في الأركيولوجيا واللغويات الأنثروبولوجية والأنثروبولوجيا الفيزيائية. ولن يسعنا بعد القراءة طويلاً عن الأمومية عند قبائل نايار Nayar⁽²⁶⁾، أو القرابين عند الأزتك، أو تصريف الفعل verb عند قبائل الهنود⁽²⁷⁾، أو تلافيف الدماغ التي تحيل على الانتقال من البشر الأوائل، إلا أن نشرع في التفكير، مثلما قال مونتين⁽²⁸⁾، في أن "كل رجل يصف بالبربرية كل ممارسة ليست ممارسته الخاصة [...]. لأن ما من معيار آخر للعقل نملكه غير مثال وأفكار مستقاة من وجهات نظر البلد الذي نعيش فيه وعاداته"⁽²⁹⁾. وليس من المرجح أن تخفي

(19) أنثروبولوجي أمريكي وعالم اجتماعي اختص بنظرية الثقافة. اهتم بدراسة العلاقة بين السلوك والثقافة من خلال دراساته عن هنود نافaho في الولايات المتحدة. (المترجمة)

(20) أنثروبولوجي أمريكي اهتم بدراسة التغيير الثقافي بين الفلاحين في المكسيك وفي أمريكا الوسطى. (المترجمة)

(21) أنثروبولوجي وإثنولوجي فرنسي ذائع الصيت، ورائد دراسات القرابة البنوية التي تسمى غالباً باسمه، وهي بنوية "عقلية" وليس "تنظيمية" سعت إلى اكتشاف حقائق العقل البشري مثلاً يقول روبار دو ليج في كتابه المعروف عن تاريخ الأنثروبولوجيا الذي ستصدر ترجمتنا له قريباً. (المترجمة)

(22) فيلسوف فرنسي ومن رواد عصر النهضة في فرنسا، كتب في الأخلاق والعلم وفن الحياة. (المترجمة)

(23) Pierre Villey (ed.), *Les Essais de Michel de Montaigne* (Paris: Universitaires de France, 1978), pp. 202–214.

(24) سكان قبيلة هندية اشتهرت خاصة بأن الأبناء يأكلون أجساد آبائهم المتوفين احتراماً وتقديساً. (المترجمة)

(25) Herodotus, *History of Herodotus* (New York: Appleton, 1859–1861), Bk. 3, Ch. 38.

(26) قبيلة هندية تقوم على النسب الأمومي، لذلك لديها عادات لافتة في الزواج والجنس. (المترجمة)

(27) قبائل من السكان الأصليين الهنود في الولايات المتحدة، تعيش اليوم في محمية قرب أريزونا، وخضعت للدراسة لجهة عاداتها اللغوية خاصة. (المترجمة)

(28) Villey (ed.), p. 205; Todorov, p. 1.

(29) Henry Bagish, "Confessions of a Former Cultural Relativist," in: Elvio Angeloni (ed.), *Anthropology* (Guilford: Dushkin Publishing, 1983);

وللأطلاع على مناقشة مفصلة بخصوص نسبية مونتين من وجهة نظر مماثلة لتلك التي أتبناها، يُنظر: Tzvetan Todorov, "Montaigne: Essays in Reading," in: Gerard Defaux (ed.), *Yale French Studies*, vol. 64 (New Haven: Yale University Press, 1983), pp. 113–144.

هذه الفكرة، مهما كانت المشكلات التي تنطوي عليها، ومهما أعرب عنها على نحو أدق، إلا إذا اختفت الأنثروبولوجيا نفسها.

لقد جاءت ردة فعل النسبيين ومناهضي النسبية في آن واحد، كلُّ بحسب توجهاته، في وجه هذه الحقيقة ذاتها، التي اكتُشفَت، تدريجياً، أنها مشتركة كلما مضى مشروعنا قدمًا، وكلما صارت النتائج التي توصلنا إليها أكثر ظرفية. إن إدراكتنا أن الأخبار الواردة من أماكن أخرى عن زواج الأشباح، والتلوث الطقسي للطهارة، وطقوس الجنس الفموي التقليدية، والقرابين الملكية، والجنس مع المراهقين غير العابئين (هل سيكون مفاجئاً أيضاً لو جرأْتُ على قول ذلك؟)، هي التي تجعل التفكير يميل بطبيعته في اتجاه منظار يقول إن هذه لَهـي "أشياء وأعراَفٌ مختلفة تماماً"، قد أدى إلى نقاشات تناوبت ما بين السخط واليأس والابتهاج، سعت جهدها إلى إقناعنا إما بمقاومة هذا الميل باسم العقل، أو تبنيه على الأساس ذاته. إن ما يبدو كأنه نقاش بشأن الآثار الأوسع للبحوث الأنثروبولوجية هو في الواقع الأمر نقاش بشأن كيفية التعايش معها.

يصل النقاش برمتّه إلى بؤرة التركيز بمجرد أن ندرك هذه الحقيقة، وأن يُنظر إلى "النسبية" و"مناهضة النسبية" على أنهما ردتا فعل عامتان على الطريقة التي يؤثّر بها ما سماه كروبر الدافع الطارد للأُنثروبولوجيا في إحساسنا بالأشياء؛ حيث الأماكن البعيدة، والأزمنة البعيدة، والأنواع البعيدة، والقواعد النحوية البعيدة. فقد تبيّن أن التنازع المفترض بين دعوة بندكت وهيرسکوفیتس إلى التسامح وبين العاطفة غير المستسامحة التي دعوا بها إلى ذلك، ليس التناقض البسيط الذي تصوره كثيرون من المناطقة الهواة، بل هو تعبير عن مدركات ناجمة عن التفكير في قبائل زوني وداهومي، مفادها أن العالم لَأَهـ مليء بأشياء بلا عدد، فإن التسريع في إصدار الأحكام يعدّ جريمة، لا محض خطأ. وبالمثل، فإن الحقائق العابرة للثقافات التي ذكرها كروبر وكلوكهون تبيّن أنها ليست مجرد هوس تعسفي وشخصي على النحو الذي تبدو عليه - تحدّث كروبر في الغالب عن مسائل إبداعية وفوضوية مثل الهذيان والحيض، أما كلوكهون فتحدّث عن مسائل اجتماعية فوضوية مثل الكذب وقتل أفراد من داخل المجموعة - بل هي تعبير عن انشغال ناجم عن التفكير في الأنثروبوس في عمومه [أي الإنسان]، مفادها أنه إذا لم يجر تجذير شيءٍ ما في كل مكان، فلا يمكن تجذير أي شيءٍ في أي مكان. إن النظرية هاهنا - إذا كان هذا هو الاسم الذي ينبغي أن نطلقه على ما تقدّمه هذه النصائح الجادة بشأن الكيفية التي ينبغي أن ننظر بها إلى الأشياء إذا كنا نريد أن نتمتع باللباقة - هي بالأحرى تبادل للتحذيرات أكثر من كونها مناقشة تحليلية. ما يُعرض علينا هاهنا هو أن نختار بين قلق وقلق.

فما يريدها النسبيون أن نقلق منه هو التزعّة المحلية Provincialism؛ الخطر من أن مدركاتنا ستكون باهتة، وعقولنا مقيدة، وتعاطفنا محصور بسبب ما أشرناه من مجتمعنا ومنحناه قيمة قصوى. أما ما يريدها مناهضو النسبية المفهومون أن نقلق منه، ويعبرُ شديد كما لو أن أرواحنا تعتمد عليه، فهو نوع من الأنثروبية الروحية، وموت حراري للعقل، يكون فيه كل شيء مهماً، ومن ثمّ غير مهم مثل كل شيء آخر: فكل شيء مقبول، وللناس فيما يعشّقون مذاهب، وأنت حر في خياراتك مسؤول عنها، وأعرف ما أحب، ولكن ليس في الجنوب، وحتى تفهم ينبغي أن تتسامح مع كل شيء *tout comprendre, c'est tout pardonner*

مثلكما اقترحت قبل قليل، فيرأيي أن النزعة المحلية تجسد الانشغال الحقيقي بما يحدث بالفعل في العالم. (على الرغم من انطواء الأمر على مبالغة هناها أيضاً: إذ قد "يفشل المرء الفشل الذريع وهو يبذل قصارى جهده"، مثلما يقول جيمس ثوربر في إحدى شذراته "الأخلاقية" اللافته)؛ ذلك أن مشهد الأعداد الهائلة من قراء الأنثروبولوجيا مستنزفين وسط إطار ذهني كوزموبوليتاني كهذا لا يملكون فيه رأياً بشأن ما هو صحيح وما هو غير صحيح، أو جيد، أو جميل، ييدو لي أمراً خيالياً. قد يكون ثمة بعض العدميين الحقيقيين، على طول شارع روديو درايف Rodeo Drive⁽³⁰⁾ أو حول ساحة تايمز سكوير Times Square، لكنني أشك في أن كثيرين منهم صاروا عدميين بسبب الحساسية المفرطة لمزاعم الثقافات الأخرى؛ وعلى الأقل معظم الأشخاص الذين ألتقي بهم وقرأت لهم وقرأت عنهم، وأنا شخصياً معهم، ملتزمون جداً بشيء ما محدود. لقد اصطدمت مناهضة النسية القلق الذي تقتات عليه؛ تماماً مثل "عيون الطفولة التي تخشى لوحات الشيطان الملونة"⁽³²⁾.

ثانيًّا

هل ييدو فعلاً أنني أبالغ؟ هل من المؤكد أن مناهضي النسبية، الذين يؤمنون بأن جلجلة الأجراس المصنوعة من القرع لا تسبب الرعد وأن أكل البشر أمر جلل، غير قادرین على أن يكونوا أكثر إثارة؟ لنسمع، إذ، إلى وليام جاس⁽³³⁾، الروائي والفيلسوف، والشخصية المهمة، والمراقب الدقيق لطائق علماء الأنثروبولوجيا:

سواء أكنا علماء أنثروبولوجيا أم لا، اعتدنا جميعاً أن نسمي قصار القامة، وسكان الأدغال والجزر، الذين يعيشون في أماكن بعيدة، "السكان الأصليين". ثم أدركنا الغطرسة غير العلمية في ذلك. حتى أكبر مجلاتنا كان يمكنها أن تنشر صورهم عراةً من دون شعور بالاستياء، لأن صدورهم المتبدلة أو المدببة كانت غير إنسانية بالنسبة إلينا مثل ضرع بقرة. وسرعان ما عدنا إلى رشدنا وجعلناهم يرتدون الألبسة. لقد آل الأمر بنا إلى فقدان الثقة بوجهة نظرنا وopicتنا المحلي، واعتنقنا النسبية، على الرغم من عهرها وشرورها، ومضينا إلى تأييد المساواة اللطيفة بين الثقافات، كل منها تقوم ب مهمتها في اندماج وتنظيم المجتمعات والإخبار عنها. لقد كان الشعور الكبير بالتفوق أحد أعباء الرجل الأبيض، واستبدل هذا الوزن الرائد، بعد التخلص منه، بإحساس ثقيل بالذنب يساويه في المقدار.

ومثلكما قد تتوقع من الجراح الذي يقول "لقد مات للأسف"، يهتف عالم الأنثروبولوجيا وهو يتبع عن الثقافة التي استطاعها من فوره مثلكما يتخلص المرء من ملابس العمل، قائلاً: "يا لها

(30) أكبر أحياء التسوق على مستوى العالم، ويقع في بيفري هيلز في لوس أنجلوس؛ حيث أغلب العلامات التجارية والمصممين والاستثمارات وأصحاب الفنادق والمراكز التجارية والمطاعم والمقاهي الفاخرة عبر العالم، يملكون عقارات هناك. ربما كانت الإحالة هنا إلى شيوخ أنماط اللامبالاة المرتبطة بالاستهلاكية الفجة التي تقترب من العدمية. (المترجمة)

(31) أو ميدان التايمز الشهير في مانهاتن بنيويورك، حيث يقع أكبر موقع للترفيه والتسوق والسياحة أيضاً. (المترجمة)

(32) أي إن الأطفال يخشون اللوحات ذات المضمادات الشريرة، لأنهم لا يدركون أنها مرسومة غير مؤذية، فكيف بالبالغين وهم يدركون ذلك؟! هذه استعارة تحيل على خوف مناهضي النسبية من النسبية الثقافية وتهمة العدمية التي أقصوها بها. (المترجمة)

(33) William Gass, "Culture, Self, and Style," *Syracuse Scholar*, no. 2 (1981), pp. 53-54.

من طريقة رديئة للعيش!" فحتى مع رزوح السكان الأصليين تحت براثن الفقر، يكسوهم الغبار والقروح، وحتى لو داست عليهم أقدامُ أقوى سوّتهم استواء الطريق، وحتى لو ماتوا تحتها بسرعة؛ يلاحظ المراقب، مع ذلك، مدى هدوئهم، وكيف تتكرر ابتسامهم، أو يندر الشجار بين أطفالهم. يمكننا أن نحسد زوني على طرائقهم السلمية ونافاها على "قلوبهم السعيدة".

من المذهل الكيفية التي شعرنا بها بالهدوء حين توصلنا إلى أن ثمة وظيفة معينة تؤديها التابوهات الغذائية، أو ختان الإناث. وإذا كان قد شعرنا بالضيق، من الناحية الأخلاقية، حال مسائل القرابين البشرية أو صيد الرؤوس، فمن الواضح أن سبب ذلك هو أننا كنا لا نزال رهن وجهة نظر أوروبية حديثة وضيقة، وأننا لم نملك أيّ تعاطف، وأننا لم نفهم، ولم يكن في مقدورنا فهمُ كل ذلك. لكننا حين صادفنا بعض المراهقين في قبائل الساحل التي تمضي الصيف عاطلة وقد سُمح لهم بممارسة الجنس من دون تابوهات، تساءلنا عما إذا قد مكّنهم ذلك من تجنب الضغوط التي يعانيها شبابنا، وأملنا في دواخلنا ألا يكون ذلك صحيحاً.

لقد عمد بعض علماء الأنثربولوجيا إلى انتزاع وجهة النظر الأخلاقية، العزيزة على توماس إليوت Thomas Eliot⁽³⁴⁾ وماثيو أرنولد Matthew Arnold⁽³⁵⁾ ورالف إيمeson Ralph Emerson⁽³⁶⁾، من كل أساس ترسو عليه (حيث العلم والفن كلاهما يطفو في تيار الصيرورة)، وسمّوا أيّ إيمان بالمعرفة الموضوعية "أصولية"، كما لو كانت الحرفة الإنجيلية الظلامية نفسها. ودافعوا عن قابلية الإنسان للتغيير، وعن الطابع السوسيولوجي لما لا يمكن أن نعده معرفة تحت مثل هذه الظروف، بل هو محض دوغماء أو "رأي" ليس إلا.

إن هذه الرؤية المضحّمة لـ "وجهة النظر الأنثربولوجية" إنما تبثق من ضبابية الحجج الكاريكاتورية التي لم تُهضم ابتداءً (يقول جاس أيضًا إن ماري دوغلاس متشككة، بينما فاته أن أسلوب بندكت الساخر فاق أسلوبه الخاص)؛ لذلك فهي رؤية تفتح الباب لأسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة. لكن التهم الآتية من داخل المهنة في حد ذاتها ليست أقل خطورة، على الرغم من أنها غير معلنة على النحو الذي يليق بالعلم. يلاحظ إيان جارفي Ian Jarvie⁽³⁷⁾ أن النسبية (أي الموقف الفائق إن جميع التقييمات هي تقييمات تتعلق بهذه المعايير أو تلك، وأن المعايير تنبع من الثقافات")⁽³⁸⁾.

تنسل منها هذه النتائج غير المقبولة؛ وهي أنها حين تحدّ من التقييم النقدي للأعمال البشرية تتربع منا سلاحنا، وتجرّدنا من إنسانيتنا، وتذرنا بلا قدرة على الشروع في تفاعل تواصلي؛

(34) شاعر وكاتب مسرحي وناقد أدبي ولد في الولايات المتحدة وعاش في إنكلترا، نال جائزة نوبل في الأدب (1948)، واعتبر أباً للحداثة في الشعر. (المترجمة)

(35) كاتب وناقد أدبي وتربيوي إنكليزي. كتب في الأدب والتاريخ واللاهوت والفن. (المترجمة)

(36) كاتب وشاعر وفيلسوف أمريكي، ورائد النزعة الترانسندنتالية Transcendentalism في أدب الولايات المتحدة. (المترجمة)

(37) فيلسوف إنكليزي تلمذ على يد كارل بوير في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية قبل أن ينتقل إلى كندا. تأثر بدور كهaim وبالوظيفية والعقلانية. (المترجمة)

(38) Ian Jarvie, "Rationalism and Relativism," *The British Journal of Sociology*, no. 34 (1983), pp. 45–46.

ما يعني بلا قدرة على النقد العابر للثقافات، والعابر للثقافات الفرعية. خلاصة القول، لا ترك النسبية أي مجال للنقد على الإطلاق [...] فوراء النسبية تلوح العدمية في الأفق.

تكمّن في الواجهة ما يشبه الفزاعة وجرس إعلان الإصابة بالجذام مقارنة بالخلفية. وما من شك في أن لا أحد هنا، نحن الذين نرتدي الملابس وفي كامل قوانا العقلية، قد يندفع نحو تبني وجهة نظر قد تجرّدنا من إنسانيتنا إلى الحد الذي يجعلنا غير قادرین على التواصل مع أيّ كان. أما المستويات العليا التي قد يصل إليها التحذير من هذه اللعوب التي ستقصص قواك النقدية، فتجعل من النسبية تفسيرًا صالحًا لكل الكوارث الحديثة، بحسب مثال أخير أسوقه هنا، هو الفصل الافتتاحي الموسوم بـ"عالم نسبي" "A Relativistic World" في كتاب بول جونسون⁽³⁹⁾ الحاد عن تاريخ العالم منذ عام 1917؛ وعنوانه "العصر الحديث (جحيم النسبية)" "The Inferno of Relativism" هو عنوان المراجعة التي نشرها هيyo توماس⁽⁴⁰⁾ للكتاب في ملحق التایمز الأدبي "The Times Literary Supplement" ، ويبدو لي عنوانًا أكثر ملاءمة؟ حيث لينين، وهتلر، وعيدي أمين، وبوكاسا، وسوکارنو، وماو، وجمال عبد الناصر، وداع همرشولد Dag Hammarskjöld⁽⁴¹⁾، والبنيوية، والـ"نيو ديل"⁽⁴²⁾، والهولوكوست، والحربان العالميتان، وعام 1968، والتضخم، وعسكرة الشتو⁽⁴³⁾، ومنظمة الأوبك، واستقلال الهند، كلها تُعدّ نتيجة لشيء يسمى "بدعة النسبية" The Relativist Heresy . وثمة "ثلاثي عظيم من العلماء الألمان واسعى الخيال" وهم نيتشه، وماركس، وفرويد (بمساعدة من جيمس فريزر James George Frazer⁽⁴⁴⁾، ومساهمتنا نحن الأنثربولوجيين) دمروا القرن التاسع عشر أخلاقياً مثلما دمّر ألبرت أينشتاين معرفياً بنفيه الحركة المطلقة Absolute Motion ، ومثلما دمّر جيمس جويس James Joyce⁽⁴⁵⁾ جمالياً بنفيه السرد المطلق. Absolute Narrative.

(39) Paul Johnson, *Modern Times: The World from the Twenties to the Eighties* (New York: Harper & Row, 1983).

جونسون هو كاتب وصحافي ومؤرخ إنكليزي، كتب عن تاريخ الشعب الأميركي وتاريخ اليهود. عُرف بعده للشيوعية ونزعته المحافظة. تُرجم كتابه المتفقون *Intellectuels* إلى اللغة العربية عام 1998 عن دار شرفات، وعام 2018 عن دار رؤية. (المترجمة)

(40) Hugh Thomas, "The Inferno of Relativism," *Times Literary Supplement*, 8/7/1983, p. 718.

توماس هو سياسي ومؤرخ إنكليزي وعضو مجلس اللوردات. وهو مؤيد لمارغريت تاتشر في الثمانينيات، عُرف ببنزعته المحافظة. (المترجمة)

(41) الأمين العام الثاني للأمم المتحدة. توفي بعد أن سقطت الطائرة الخاصة التي كانت تحلق به مع زملائه فوق وسط أفريقيا. ولا يزال موته / مقتله لغزاً إلى اليوم. (المترجمة)

(42) حزمة الإصلاحات الاقتصادية، والسياسية ضمناً، التي نفذها الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت، استجابةً لتداعيات الكساد الكبير الذي أعقب الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929؛ مثل قوانين العد الأدنى من الأجور، وفرض ضريبة على الأثرياء، وتحريف القيد على السياسة الاقتصادية. وقد أدت إلى الهجوم والاستباء بعد أن عانى منها الأقل حظاً. (المترجمة)

(43) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ألغى الحلفاء تقاليد الشتو بوصفها دليلاً للدولة في اليابان، وألغيت في دستور ما بعد الحرب ومنعت عن عابدها الأموال والمساعدات وحولت إلى منظمات دينية. لقد عدوها السبب في نمو الروح القومية الشرسة والقتالية عند اليابانيين، وحملوها التائج الكارثية للحرب! (المترجمة)

(44) من أوائل علماء الأنثربولوجيا الموسوعيين. ولد في إسكتلندا وتخرج في كامبريدج. صاحب كتاب *الغضن الذهبي The Golden Bough*. (المترجمة)

(45) كاتب وشاعر وروائي إيرلندي ملأ الدنيا وشغل الناس، حتى عُدَّ أحد أشهر أدباء النصف الأول من القرن العشرين. كاتب الرمز ومدشنه حتى صار موضوعاً في العلوم الاجتماعية لساعات ما أثاره أسلوبه في الكتابة من نقاشات. وهو صاحب رواية *يوليس* أو *وليس Ulysses* التي تُرجمت إلى لغات العالم ومنها اللغة العربية. (المترجمة)

وصف ماركس عالماً تعدّ الدينامية المركزية فيه هي المصلحة الاقتصادية. وبالنسبة إلى فرويد، كان الدافع الأولي جنسياً [...] أما نيتشه، ثالث الثلاثة، فكان ملحداً أيضاً [...] [وقد] رأى في [موت الإله] [...] حدثاً تاريخياً سيكون له تداعيات مهمة [...] لقد أفضى تراجع الدافع الديني وانهياره بين الأعراق المتقدمة إلى فراغ هائل في نهاية المطاف. وتاريخ العصر الحديث هو في جزء كبير منه، تاريخُ الكيفية التي [مُلئ] بها هذا الفراغ. ولقد أدرك نيتشه عن حق أن أكثر البدائل احتمالاً هو ما سماه "إرادة القوة" [...] لقد حلّت مكان المعتقد الديني أيديولوجياً علمانية، ومن شغلوا مناصب رجال الدين الشموليّين صاروا سياسيين شموليّين [...] وحملت نهاية النظام القديم، التي استصحبت مشارف عالم بلا مرشد انحرف في اتجاه عالم نسيي، دعوةً إلى عصابات رجال الدولة للبروز. ولسرعان ما بُرزوا من فورهم⁽⁴⁶⁾.

ربما لم يتبقّ شيءٍ نضيّفه بعد كلّ هذا، باستثناء ما قاله جورج ستوكينج⁽⁴⁷⁾، موجزاً ما قاله آخرون: "النسبة الثقافية، التي دعمت الهجوم على التحيز إلى العرق⁽⁴⁸⁾، [يمكن] اعتبارها نوعاً من التحيز العرقي الجديد الذي بررّ الوضع التقني الاقتصادي المتّخالف للشعوب التي كانت مستعمرة ذات يوم⁽⁴⁹⁾. أو ما قاله ليونيل تاير⁽⁵⁰⁾، موجزاً رأيه الخاص: "إن الحجة النسوية التي مفادها [عدم الضرورة الاجتماعية للقوانين التي وضعها النظام البطريكي]"، تعكس النسبة الثقافية التي لطالما وسمت علوماً اجتماعية رفضت أن يتّحد السلوك البشري بالعمليات البيولوجية⁽⁵¹⁾. التسامح الطائش والتعصب الطائش، والتفلّت من الأيديولوجيا والهوس بالأيديولوجيا، ونفاق المساواة وتسطيع المساواة، كلّها تتبع من العجز نفسه. النسبة الثقافية تولّد كل شيءٍ سيء، مثلها مثل الرفاهية ووسائل الإعلام والبرجوازية والدوائر الحاكمة.

لم يكن من السهل على علماء الأنثروبولوجيا، الذين يمارسون مهنتهم ويتأملونها على نحو ما، أن يظلوا بمعزل عن التأثير بطنين القلق الفلسفى المتّصاعد في كل مكان حولهم، على الرغم من انكفاءهم على نزعتهم المحلية الخاصة. لم أذكر النقاشات الحادة التي نجمت عن إحياء النظرية السياسية والأخلاقية، وظهور النقد الأدبي التفكىكي، وانتشار المزاج المناهض للأسسية في الميتافيزيقيا والإبستيمولوجيا، ورفض الرؤية الخطية Whiggery والتّزعّة

(46) Johnson, p. 48.

(47) كاتب ومؤرخ أمريكي، اشتهر بتاريخه للأنثروبولوجيا الثقافية في الولايات المتحدة والأنثروبولوجيا الاجتماعية في إنكلترا. ترکزت أبحاثه حول المركبة العرقية التي أثّرت في عمل الأنثروبولوجيين الفيكتوريين خاصّة. (المترجمة)

(48) نفضّل عبارة التحيز إلى العرق ترجمة لمفردة Racism بدلاً من عنصرية. (المترجمة)

(49) George Stocking, "Afterword: A View from the Center," *Ethnos*, no. 47 (1982), p. 176.

(50) أنثروبولوجي أمريكي مهم بتجسيّر الهوة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية لا سيما البيولوجيا، ويشغل منصب مستشار في وزارة الدفاع الأمريكية في مجال مستقبلات البيوتكنولوجيا. (المترجمة)

(51) Lionel Tiger & Joseph Sepher, *Women in the Kibbutz* (New York: Harcourt Brace Jovanovich/ Harvest, 1975), p. 16.

الميثودية Method-ism في تاريخ العلم). ذلك الخوف من ألا يترك لنا إلحاانا على الاختلاف والتنوع والغرابة والانقطاع وعدم القابلية للمقارنة والتفرد، وما إلى ذلك - أو ما أسماه وليم إمبسون⁽⁵²⁾ سيركًا أثروبولوجيًا صاحبًا عملاً [ترك] كل مقصوراته مشروعًا⁽⁵³⁾ - شيئاً لنقوله سوى أن الأمور مختلفة في أماكن أخرى، وأن الثقافة بوصفها ثقافة نمت وامتدت وأضحت أكثر كثافة. ولقد أصبحت كثيفة جدًا، في واقع الأمر، إلى الحد الذي دفعنا ذلك إلى بعض الاتجاهات المعتادة في محاولة، غير مدرستة مثلما أعتقد، لکبحها.

يمكنا أن نتعلى على أساس لهذا الافتراض الأخير في عدد لا يأس به من المواضيع في الفكر والبحوث الأنثروبولوجية المعاصرة - من مذهب المادية الهاريمية⁽⁵⁴⁾ على طريقة "كل ما ينشأ ينبغي أن يتقارب" Everything that Rises must Converge⁽⁵⁵⁾، وصولاً إلى النظورية الكامنة في فكرة "الفجوة الكبرى" البويرية (حيث نحن "نملك علومًا [...] ومعرفة القراءة والكتابة، ونظريات تتنافس، ومفهومًا ديكارتيًا للمعرفة [...] وهم لا يملكون")⁽⁵⁶⁾. لكنني أريد في الوقت الحالي التركيز على مسألتين مهمتين أو لنقل شائعتين على أيّ حال: محاولة العودة إلى مفهوم مستقل عن السياق

(52) شاعر وناقد أدبي إنكليزي. نشر أشهر كتابه في النقد الأدبي عام 1930، وعنوانه سبعة أنماط من التموض^{of ambiguity}, وقد ترجم إلى اللغة العربية عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام 2000. (المترجمة)

(53) William Empson, *Collected Poems* (New York: Harcourt, Brace and World, 1955).

وجرى الاستشهاد بالنص ذاته لغرض معاكس في:

Clyde Kluckhohn, "Education, Values and Anthropological Relativity," in: Clyde Kluckhohn (ed.), *Culture and Behavior* (New York: Free Press, 1962), pp. 292–293.

(54) نسبة إلى مارفن هاريس Marvin Harris. (المترجمة)

(55) أي إن كل شيء لا بد من أن يرتد إلى نقطة واحدة؛ أو نقطة أوميغا Omega Point مثلما يسمّيها الفيلسوف الفرنسي بيير تيلار دو شاردان Pierre Teilhard de Chardin، حيث ينتهي إليها كل تطور واتجاه ووعي. (المترجمة)

(56) للمزيد حول الموضوعات المذكورة في هذا الاقتباس، يمكن الاطلاع بشأن المادية على:

Marvin Harris, *The Rise of Anthropological Theory* (New York: Crowell, 1968);

وعن العلم و"الفجوة الكبرى"، يُنظر:

Ernest Gellner, *Spectacles and Predicaments* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979);

وعن معرفة القراءة والكتابة، يُنظر:

Jack Goody, *The Domestication of the Savage Mind* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977);

وعن النظريات المتنافسة، يُنظر:

Robin Horton, "Tradition and Modernity Revisited," in: Martin Hollis & Steven Lukes (eds.), *Rationality and Relativism* (Cambridge: MIT Press, 1982), pp. 201–260;

وعن المفهوم الديكارتي للمعرفة، يُنظر:

Steven Lukes, "Relativism in Its Place," in: Hollis & Steven Lukes (eds.), pp. 261–305; Bernard Williams, *Descartes: The Project of Pure Enquiry* (Harmondsworth: Penguin, 1978);

وعن كارل بوب الذي تسلّم منه كل هذه البركات، يُنظر:

Karl Popper, *Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge* (London: Routledge and Kegan Paul, 1963); Karl Popper, *Objective Knowledge: An Evolutionary Approach* (Oxford: Clarendon Press, 1972).

ل"الطبيعة البشرية" حصنًا ضد النسبية، وبالمثل، محاولة العودة إلى مفهوم مشابه للمفهوم القديم الآخر، ألا وهو "العقل البشري".

وهنا أيضًا أكرر أنه لا بد من أن تكون واضحاً حتى لا لاتهم، تحت طائلة افتراض مفاده أنه "إذا كنت لا تؤمن برأيي فأنت تؤمن برأي تعارضني" مثلما أشرتُ آنفًا، بالمحاجة من أجل مواقف سخيفة لا يحملها أي شخص جاد، وربما حملت هنا أو هناك بحماس مؤقت سرعان ما تبخر - مثل التأريخية الراديكالية التي ترى أن الثقافة في كل مكان، أو الإمبريالية البدائية التي ترى أن الدماغ لوح أسود. فليست المسألة إذا ما كان البشر كائنات بيولوجية ذات خصائص جوهرية؛ فالرجال لا يستطيعون الطيران، والحمام لا يستطيع الكلام. ولا يتعلّق الأمر بما إذا كان بينهم قواسم مشتركة في الأداء العقلي أينما صادفناهم؛ فسكان بابوا يحسدون، والسكان الأصليون في أستراليا يحلّمون. إنما المسألة هي ما الذي ستفعله بهذه الواقع التي لا خلاف عليها حين نبدأ في شرح الطقوس، أو تحليل النظم البيئية، أو تفسير تسلسل الحفريات، أو مقارنة اللغات.

ثالث

يُتَخَذُ هذان الاتجاهان نحو استعادة التصورات الخالية من الثقافة عما نعتبره الـ *Homo sapiens* الأساسي والجوهرى من دون إضافات عاقلة، عدداً من الأشكال الشديدة التباين من دون اتفاق كبير خارج مضمونها العام، أحدهما طباعي، والثاني عقلاً. على الجانب الطبيعي، نجد السوسيobiولوجيا والتوجهات التكيفية المفرطة الأخرى. لكن لدينا أيضًا منظورات تنبثق من التحليل النفسي، والإيكولوجيا، وعلم الأعصاب، وعلم السلوك القائم على التعلم بالعرض والانطباع الذهني، وبعض أنواع النظرية التنموية، وبعض أنواع الماركسيّة. أما على الجانب العقلاً، فلدينا بطبعية الحال التعقلية الجديدة New Intellectualism المرتبطة بالبنيوية والتوجهات المنطقية المفرطة الأخرى. لكننا نذكر أيضًا منظورات تنبثق من علم اللغة التوليدى، وعلم النفس التجربى، وأبحاث الذكاء الاصطناعي، ومايكروسوسيولوجيا الخدع والخدع المضادة، وبعض أنواع النظرية التنموية، وبعض أنواع الماركسيّة. إن محاولات إبعاد شبح النسبية، سواء عن طريق الانزلاق إلى أسفل السلسلة الكبرى للوجود *The Great Chain of Being*، أو الانتقال فيها صعودًا - ما بين سلوك حيواني كامن، أو عقل لجميع الثقافات - لا تتضمن مشروعًا واحدًا، ضخماً ومتسلقاً، بل حشدًا فضفاضًا من المشروعات التي لا امتناع فيها، وكل منها يضغط من أجل قضيته الخاصة وفي اتجاهه الخاص، مثل خطية واحدة يقابلها خلاص متعدد.

ولهذا السبب أيضًا، فإن هجومًا، مثل هجومي، على الجهد الذي تروم استخلاص مفاهيم مستقلة عن السياق لـ"الطبيعة البشرية" أو "العقل البشري"، انطلاقاً من أسئلة بيولوجية أو نفسية أو لغوية، أو أبحاث ثقافية في هذا الصدد (مثل مؤسسة ملفات ميدان العلاقات البشرية ⁽⁵⁷⁾Human Relations Area Files

(57) مؤسسة أبحاث في الأنثروبولوجيا الثقافية تابعة لجامعة بيل في الولايات المتحدة، تأسست عام 1949. (المترجمة)

وغيرها)، لا ينبغي أن يُفهم خطأً على أنه هجوم على تلك الأبحاث بما هي ببرامج بحثية. فحتى لو كانت السوسيولوجيا، كما أعتقد، برنامجاً بحث متهاكماً محكوماً بالاضمحلال بسبب اضطراباته الداخلية الخاصة، وإذا كانت علوم الأعصاب برنامجاً تقدماً على وشك تحقيق إنجازات استثنائية (إذا ما استخدمنا نعوت إيمريه لاكتوش اللافتة)⁽⁵⁸⁾، فإن دعوة علماء الأنثروبولوجيا إلى إيلاء اهتمامهم للاستنتاجات العلمية، في مزيج متنوع ربما، من حقول البنوية، والنحو التوليدية، وعلم سلوك الحيوان، والذكاء الاصطناعي، والتحليل النفسي، والإيكولوجيا، والميكروسوسيولوجيا، والماركسية، وعلم النفس التنموي بين هذا وذاك، تقع خارج ما تتحدث عنه هاهنا؛ إذ لا يتعلّق الأمر على أيّ حال، بصلاحية العلوم، سواء أكانت حقيقة أم مفترضة. فما يهمّني، ويجب أن يشغلنا جميعاً، هو المحاور التي تترسخ على الأرض بنشاط بمساعدة هذه العلوم، يحدوها إصرار متزايد يقترب من الإنجيلية.

لولوج كل هذا من الجانب الطبيعي، يمكننا التوقف عند كتاب ماري ميدجلي⁽⁵⁹⁾، وحش وإنسان: *جذور الطبيعة البشرية* (1978) (*Beast and Man: The Roots of Human Nature*) ونتخذ منه بياناً متوازناً ومعتدلاً عن هذا الموقف؛ حيث أفضى إلى نقاش عام حظي بقبول واسع - ويصعب فهم لم لأنّه كان أقرب إلى تصريحات في معظمها. على إيقاع عبارة "ذات مرة كنت أعمى، لكنني اليوم أبصر"، الواردة في كتاب رحلة الحاج *Pilgrim Progress*، التي تجسد مثلاً عن النغمة المميزة لمثل هذه الخطابات خلال السنوات الأخيرة، تقول ميدجلي:

دخلتُ هذه الغابة بنفسي أول مرة قبل زمن، بعد أن انزلقتُ نحوها عبر جدار الحديقة القاحلة الصغيرة، المزروعة في ذلك الوقت تحت اسم الفلسفة الأخلاقية البريطانية. فعلت ذلك في محاولة للتفكير في الطبيعة البشرية ومشكلة الشر. لقد اعتقدتُ أن الشرور في العالم حقيقة، وأنّ كونها كذلك ليس خيالاً مفروضاً علينا من ثقافتنا الخاصة، ولا خيالاً أنساناً بإرادتنا وفرض على العالم. ومثل هذه الافتراضات ضلال. فتحن لا نختار ما نكره. يجعل الثقافة التفاصيل مختلفة من دون شكّ، لكننا نستطيع أن ننتقد ثقافتنا بعد ذلك. فما المعيار [لاحظ المفرد] الذي نستخدمه لنقدّها؟ ما البنية الأساسية للطبيعة البشرية التي صُممّت الثقافة لاستكمالها والتعبير عنها؟ في هذه المجموعة المتشابكة من الأسئلة، وجدتُ بعض التوضيحات التي عمل عليها علماء النفس منذ فرويد ويوينغ، تخصّ مبادئ بدا أنها توفر الأمل، ولكنها لم تكن واضحة تماماً بالنسبة إلىّي. واختطّ علماء الأنثروبولوجيا مجالات أخرى، وبدأ أن لديهم بعض الاهتمام بمشكلتي، لكنهم كانوا يميلون [...] إلى القول إن ما يشتراك فيه البشر لم يكن مهمّاً جداً في النهاية، وإن مفتاح كل الألغاز [يكمّن] في الثقافة. وقد بدا لي هذا سطحيّاً [...] ثم وقعتُ [أخيراً]

(58) Imre Lakatos, *The Methodology of Scientific Research* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976).

(59) فيلسوفة بريطانية عملت محاضرة في جامعة نيو كاسل لسنوات. اهتمت بدراسة العلاقة بين الفلسفة والأخلاق والعلوم التجريبية. وكتبت عن نظرية الارقاء *Evolution as Religion*، وترجم الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان رهبان التطور، عام 2020. (المترجمة)

على تبصر آخر، وهذه المرة كان توسيعاً لحدود علم الحيوان التقليدي، على يد باحثين درسوا طبيعة الأنواع الأخرى [كونراد لورنر Konrad Lorenz⁽⁶⁰⁾، ونيكولاوس تينبرغن Nikolaas Tinbergen⁽⁶¹⁾، وآرونوس إيبس-إيبسفلدت Irenäus Eibl-Eibesfeldt⁽⁶²⁾، ديزموند موريس Desmond Morris⁽⁶³⁾]. أبحاثهم الكثيرة عن معرفة ماهية هذه الطبيعة كانت حديثة، لكنها تتبع تقاليد دارون، وأرسطو أيضاً؛ لقد ارتبطت بمشكلات انصب عليها اهتمام أرسطو في الماضي، ثم باتت ملحة اليوم⁽⁶⁴⁾.

إن الافتراضات التي تتخلل إعلان الضمير هذا ربما كانت افتراضات تردد على صاحبها؛ وهي أن التخيلات التي فرضتها علينا الأحكام الثقافية (هل أن الفقراء لا قيمة لهم، وأن السود دون البشر، وأن النساء غير عقلانيات؟) ليست جوهرية على نحو كافٍ لتشكل الأساس الحقيقي للشر، وأن هذه الثقافة هي الجليد والبيولوجيا والكعك، وأنه ليس لدينا خيار فيما ينبغي أن نكره (الهبيرون؟ أم رؤساء العمل؟ أم المثقفون؟ أم النسبيون؟)، وأن الاختلاف ضحل، والتباين عميق، وأن لورنر واضح وفرويد غامض. فكل ما حذر هو أن حديقة جرى استبدالها بأخرى، وظللت الغابة على بعد عدة جدران.

الأهم من ذلك هو: ما نوع هذه الحديقة التي "يلتقي فيها دارون وأرسطو"؟ وأيّ نوع من المكرهات تصير غير اختيارية؟ وأيّ نوع من الواقع تعدد ضد الطبيعة؟

حسناً، هي علاقات الإعجاب الجنسي المتبادل، والصادية، ونكران الجميل، والرتابة، ونبذ المقدعين، وأمور أخرى غيرها، على الأقل عندما تمارس بإفراط: يمكن استيعاب هذه الفكرة [أن ما هو طبيعي ليس محضر حالة أو نشاط [...] بل مستوى معين من هذا الشرط أو النشاط يشكل نسبة من بقية حياة الفرد] من علاج الصعوبات التي شملت مفاهيم، مثل مفهوم طبيعي، وجعلت كثيرين يعتقدون أنها غير صالحة للاستخدام. فهي إلى جانب معناها القوي، الذي يوصي بشيء ما، تملك معنى ضعيفاً؛ إذ تعدد الصادية في المعنى الضعيف أمراً طبيعياً. ما يعني أنها تحدث فحسب، وينبغي أن نعترف بذلك [...] لكننا بالمعنى القوي والمكتمل قد نقول إن السلوك الصادي سلوك غير طبيعي؛ بمعنى أن السياسة القائمة على مثل هذا الدافع الطبيعي، والتي تمتد عبر حياة الفرد لتصير

(60) عالم بيولوجي نمساوي ذاع الصيت بفضل كتاباته عن أنظمة السلوك والعدوانية عند الإنسان والحيوان. يعد مؤسس علم سلوك الحيوان في العصر الحديث (الإيتولوجيا)، ومن الباحثين المؤثرين في مجال الصلة بين العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي. (المترجمة)

(61) عالم هولندي في علم سلوك الحيوان والنمط الاجتماعي بين الحيوانات؛ وهو الميدان الذي حصل فيه على جائزة نوبل عام 1973. (المترجمة)

(62) عالم حيوان نمساوي، وأحد مؤسسي علم سلوك الحيوان رفقة كونراد لورنر الذي تلمنذ على يديه. (المترجمة)

(63) عالم حيوان إنكليزي وباحث في السوسيobiولوجيا. من مؤلفاته التي تُرجمت إلى اللغة العربية: القرد العاري: دراسة في التطور العضوي والاجتماعي والجنسي للإنسان. *The Naked Ape: A Zoologist's Study of the Human Animal*. (المترجمة)

(64) Marry Midgeley, *Beast and Man: The Roots of Human Nature* (Ithaca: Cornell University Press, 1978), pp. xiv-xv، التشديد وارد في الأصل.

نشاطاً منظماً، مثلما قال [الأسقف] بتلر، "تتعارض مع التكوين الكامل للطبيعة البشرية". إن موافقة البالغين على أن بعض بعضهم بعضاً في السرير تُعدّ أمراً طبيعياً، أما أن يتتمرن المدرسون على الأطفال من أجل إشباعهم الجنسي فليس كذلك؛ إذ إن ثمة شيئاً غير صحيح في هذا النشاط يتجاوز الضرر الفعلي الذي يسببه. يمكننا العثور على أمثلة لهذا الأمر الخاطئ - غير الطبيعي - لا تشمل الغير بوصفهم ضحايا، مثل النرجسية المتطرفة، والانتحار، والهوس، وسفاح القربى، وعلاقات الإعجاب المتبادل الخاصة. ونقول "إنها حياة غير طبيعية"، بمعنى أن مركزها تغيير محله. الأمثلة الأخرى التي تشمل الغير بوصفهم ضحايا هي العدوانية الموجهة، ونبذ المقدعين، ونكران الجميل، والانتقام، وقتل الأب. كل هذه الأشياء تعدّ طبيعية من حيث إن ثمة دوافع معروفة تدفع نحوها، وهي جزء من الطبيعة البشرية. لكن العدوان المعاد توجيهه وغيره يمكن وصفه بأنه غير طبيعي حين نفكّر في الطبيعة بالمعنى الكامل؛ لا بوصفها تجميعاً للأجزاء، بل كلاً منظماً. وهذه أجزاء من شأنها أن تدمر شكل هذا الكل إذا سُمح لها بالاستحواذ عليه⁽⁶⁵⁾.

فضلاً عن أنها تضفي الشرعية على إحدى أكثر المغالطات شيوعاً في النقاش الفكري في الوقت الحاضر، بتأكيدها شكلاً قوياً من الحجّة ثم دفاعها عن شكلها الضعيف (الصادقة طبيعية طالما أنك لا تعصّ بشدة)، فإن هذه اللعبة الصغيرة من التلاعب بالمفهوم (قد يكون الطبيعي غير طبيعي عندما نفكّر في الطبيعة "بالمعنى الكامل")، تكشف عن الأطروحة الأساسية في كل هذه الحجج عن الطبيعة البشرية: وهي أن الفضيلة (الإدراكية والجمالية والأخلاقية على حد سواء) هي بالنسبة إلى الرذيلة مثل اللياقة للفوضى، والحالة العادمة للشذوذ، والرفاهية للمرض. ومهمة الإنسان، كما هي الحال بالنسبة إلى رئته أو غدته الدرقية، هي الاشتغال على النحو الصحيح. وتحاشي المقدعين قد يكون خطراً على صحتك.

أو كما يقول ستيفن سالكيفر⁽⁶⁶⁾، عالم السياسة وأحد تلامذة ميدجلي:

ربما يكون أفضل نموذج أو نظير متتطور لعلم اجتماعي وظيفي مناسب هو ذلك الذي يوفره الطب. بالنسبة إلى الطبيب، تصير السمات الجسدية للكائن الفردي قابلة للفهم في ضوء التصور الأساسي للمشكلات التي تواجه هذا النظام المادي الموجّه ذاتياً، وفي ضوء الإحساس العام بالحالة الصحية للكائن الحي، أو تلك التي تعمل على نحو جيد ولها صلة بتلك المشكلات. ففهم المريض يعني فهمه/فهمها على أنه/أنها أكثر صحة أو أقل مقارنةً ببعض المعايير الثابتة والموضوعية للرفاهية الجسدية، وهو النوع القياسي الذي يسميه الإغريق *Arete*. وترجم هذه الكلمة الآن عادةً إلى "التيمة"، لكنها في الفلسفة السياسية

(65) Midgeley, pp. 79–80.

التشديد وارد في الأصل. ويرد مثال "الرتابة" في الهاشم أسفل النص كما يلي: "الرتابة في حد ذاتها تعدّ حداً غير اعتيادي".

(66) Stephen Salkever, "Beyond Interpretation: Human Agency and the Slovenly Wilderness," in: Haan et al. (eds.), p. 210.

عند أفلاطون وأرسطو، تشير ببساطة إلى السمة المميزة أو الامتياز النهائي للموضوع في أي تحليل وظيفي.

وهنا أيضاً يمكن أن ننظر في أي مكان داخل الأنثروبولوجيا هذه الأيام، وسنعثر على أمثلة وافرة عن عودة الحياة لطريقة التفكير القائمة على أن "كل شيء يرتد إلى ..." (جينات، وكونية الأنواع، وهندسة دماغية، وتكويني نفسي وجنسني ... إلخ). هُن تقريرًا أي شجرة وسيسقط منها من دون شك أناني إشاري Selfish Altruist، أو بنوي يدرس علم الجينوم.

لكتني أعتقد أنه ربما من الأفضل، أو بصورة أقل مراوغة على الأقل، لو استعثنا بمثال لا يكون هدفًا مكشوفًا أو سهل المنال، أو نصًا يدحض نفسه. لذا اسمحوا لي أن أتفحص بإيجاز شديد، آراء ملفورد سبيرو⁽⁶⁷⁾، ولا سيما أحدث آرائه، وهو أحد أكثر الإثنوغرافيين خبرة، وأحد المنظرين المهمين لدينا، إضافة إلى كونه أحد أشرس من ناظر في هذا السجال. قد تكون ثمة أمثلة أكثر وضوحاً وباحثون أقل ضبابية وحذرًا في آرائهم ومن ثمّ أفضل من غيرهم لإثارة الرهبة في النفس، لكننا مع سبيرو، على الأقل، لا نتعامل مع شخصية هامشية - على شاكلة ديسمن موريس Desmonf Morris أو روبرت أردرى Robert Ardrey - ممن قد تتعرض للرفض بسهولة بحجة أنها هاوية أو مروّجة أفكار، بل مع شخصية رئيسة تقع في مركز الحقن أو بالقرب منه جدًا.

أحدث جولات التوغل المهمة التي أنجزها سبيرو في "عمق" أنثروبولوجيا الهومو - إعادة اكتشافه للرومانسية العائلية الفرويدية في كتابه الخاص عن الكيبيوتيس في البداية، ثم في كتاب مالينوفسكي عن جزر تروبرياند - معروفة وقد تكون، مثلما قد أجرؤ على القول، مقنعة لقراءها، أو غير مقنعة، شأنها شأن أي نظرية في التحليل النفسي من النوع الكلاسيكي. لكن ما يشغلني هنا أيضًا مختلف؛ وهو مناهضة النسبية على طريقة "هذا هو الإنسان" Here Comes Everyman التي يبنيها انتلًا من ذلك. ولمزيد من الفهم، يلخص مقاله الجديد⁽⁶⁸⁾ تقدّمه من التباساته السابقة وصولاً إلى تبصراته الحالية. "الثقافة والطبيعة البشرية" Culture and Human Nature، هو عنوان المقال الذي يلتقط حالة مزاجية عامة وانحراف المواقف الذي يعرف انتشارًا أوسع مقارنةً بمنظوره النظري المأزوم الذي فقد أهميته.

ينتفي مقال سبيرو، مثلما ذكرت، إلى مزاج تمثّله عباراتٌ على شاكلة "حين كنت طفلًا كنت أتحدث مثل طفل، لكنني اليوم وقد كبرت، تخللت عن الأشياء الطفولية"، وهو مزاج بارز جدًا في الأدب المناهضة للنسبية على نحو عام. (ربما كان عليه أن يعنون مقاله على خطى أنثروبولوجي آخر من جنوب كاليفورنيا - ويبدو أن النسبية تشكّل عنده خطراً واضحًا وحاضرًا ونهائيًا - حيث

(67) أنثروبولوجي أمريكي. يهودي هاجر رفقة عائلته إلى الولايات المتحدة. مهتم بقضايا الدين وعلم النفس. كتب عن الجندر والثقافة في مستوطنات الكيبيوتيس في إسرائيل. (المترجمة)

(68) Melford Spiro, "Culture and Human Nature," in: George Spindler (ed.), *The Making of Psychological Anthropology* (Berkeley: University of California Press, 1978), pp. 330-360.

اختار لنجمه عنوان "اعترافات أحد رواد النسبية الثقافية السابقين" Confessions of a Former "Cultural Relativist" (69).

يبدأ سبيرو دفاعه بالاعتراف بأنه حين ولج حقل الأنثروبولوجيا أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، وانطلاقاً من خلفية ماركسية والعديد من الدورات في الفلسفة البريطانية، تكيف على نحو مسبق مع وجهة نظر إيكولوجية جذرية للإنسان تفترض أن العقل صفة بيضاء، ووجهة نظر اجتماعية حتمية للسلوك، ووجهة نظر في الثقافة تقوم على النسبية الثقافية، ثم يروي لنا حكاية بحثه الميداني بوصفه تجربة تعليمية وموعظة لعصرنا، وسردية لا تحكي عن الكيفية التي تخلّى بها عن هذه الأفكار فحسب، بل كيف استبدلها بأفكار معاكسة. ففي إفالوك Ifaluk (70)، اكتشف أن الأشخاص الذين أظهروا قدرًا ضئيلاً جدًا من العدوانية الاجتماعية يمكنهم أن يُيتلوا بمشاعر عدائية. وفي إسرائيل، اكتشف أن الأطفال "الذين نشّروا في [النظام] الجماعي والتعاوني" في الكيبوتس، والذين جرت تنشئتهم اجتماعياً ليكونوا معتدلين ومحبّين وغير قادرين على المنافسة، استأروا من محاولات حملهم على تقاسم السلع، وعندما اضطروا إلى القيام بذلك شُبّوا مقاومين وعدائين. وفي بورما، اكتشف أن الإيمان بمؤقّية الكينونة الوعائية، أي التيرفانا البوذية وفق الارتباط مع الواقع، لم يؤدّ إلى تضاؤل الاهتمام بالأمور المادية المباشرة التي تعجّ بها الحياة اليومية.

باختصار، أقنعني [دراساتي الميدانية] أن الكثير من الاستعدادات والدّوافع ثابتة من الناحية الثقافية [و] الكثير من التوجهات الإدراكية [كذلك]. تُبَعَّد هذه التصرفات والتوجهات الثابتة من الثوابت البيولوجية والثقافية لعموم البشر، وهي تشمل تلك الطبيعة البشرية العالمية التي، جنباً إلى جنب مع الآراء الأنثروبولوجية التي تلقّيَتها، كنتُ قد رفضتها في السابق باعتبارها تحيزاً عرقياً آخر (71).

بصرف النظر عما إذا كان الأمر يتعلق بمشاهد عن شعوب، من ميكرونيسيا إلى الشرق الأوسط، يدعون إلى الأخلاق، ويملؤهم السخط، ويسعون خلسة لتحقيق مصالح تتعلق بالمتعة، ينقصنا التأكيد من الشك الضمني بأن بعض التحيز العرقي يكمن في رؤية سبيرو للطبيعة البشرية العالمية. لكنّ ضوء الوضوح لن ينقصنا لمعرفة ما يفصح عنه سبيرو بصراحة؛ وهو الأفكار البغيضة الناتجة من النسبية البغيضة، بحيث اللجوء إلى الوظيفية الطبيعية صُمِّم لشفائنا من:

مفهوم النسبية الثقافية [...] الذي جرت الاستعانة به لخوض معركة ضد المفاهيم العرقية بوجه عام، ومفهوم العقلية البدائية على وجه الخصوص [لكن] النسبية الثقافية استُخدمت

(69) Bagish.

عن خطاب ملتبس آخر عن "مشكلة النسبية" من الجهة الأخرى من العالم (عرضت هنا ما اعتقدت أنه وجهة نظر معقولة تسد الفراغ الذي تركه النسبية الأخلاقية، والتي بدا أنها تراجع بحلول الشهادتين بدلاً من أن تتأكد، ص 12)، يُنظر:

Elvin Hatch, *Culture and Morality: The Relativity of Values in Anthropology* (New York: Columbia University Press, 1983).

(70) جزر في المحيط الأطلسي، يقطنها سكان أصليون وتشكل معًا ما يسمى فدرالية ميكرونيزيا. (المترجمة)

(71) Spiro, pp. 349–350.

أيضاً، على الأقل من بعض علماء الأنثروبولوجيا، لإدامة نوع من العرقية العكسية؛ أي إنها استُخدمت أداة قوية للنقد الثقافي، مع ما يترتب على ذلك من انتقاص للثقافة الغربية والعقلية التي أنتجتها. لقد انتهت تبني فلسفة البدائية [...] إلى استخدام صورة الإنسان البدائي [...] وسيلةً لمتابعة المساعي الشخصية الطوباوية، و/ أو نقطة ارتكاز للتعمير عن الاستياء الشخصي من الرجل والمجتمع الغربيين. واتخذت الاستراتيجيات المعتمدة عدة أشكال، وهذه أمثلة عنها: 1. محاولات إلغاء الملكية الخاصة، أو انعدام المساواة، أو العدوانية في المجتمعات الغربية تملك فرصة واقعية ومقولة للتحقق، لأن مثل هذه الأوضاع يمكن العثور عليها في العديد من المجتمعات البدائية. 2. مقارنة بعض البدائيين على الأقل، فإن الرجل الغربي منافس فريد، ومحب للحرب، وغير متسامح مع الانحراف، ومتحيز على أساس الجنس، وما إلى ذلك. 3. جنون العظمة ليس بالضرورة مرضًا، لأن التفكير المصاب بجنون العظمة يتم إضفاء الطابع المؤسسي عليه في مجتمعات بدائية معينة؛ والشذوذ الجنسي ليس انحرافاً، لأن الشاذين جنسياً يعانون نجوماً ثقافية في بعض المجتمعات البدائية؛ والزواج الأحادي لا يمكن أن يستمر، لأن تعدد الزوجات هو الشكل الأكثر شيوعاً للزواج في المجتمعات البدائية⁽⁷²⁾.

بقطع النظر عن إضافة بعض العناصر الأخرى إلى القائمة الالانهائية من المكرهات غير الاختيارية، فإن إقحام فكرة "الانحراف"، التي يجري تصورها على أنها خروج عن قاعدة متأصلة شأنها شأن عدم انتظام ضربات القلب، لا يوصفها تمثيل شاردة إحصائية على نحو زواج الإخوة المتعددين من نفس المرأة Fraternal Polyandry، هو ما يشكّل الخطوة الحاسمة حقاً وسط كل هذا الضجيج والتفخ في مصطلحات "العرقية العكسية" و"المهمات الطوباوية" و"فلسفة البدائية"، لأنه من خلال هذه الفكرة عن صديق الشارع The Lawgiver's Friend⁽⁷³⁾، يحدث الانتقال الذي تحدثت عنه ميدجلي من الطبيعي (العدوان، وانعدام المساواة) إلى الطبيعي غير الطبيعي (جنون العظمة، والشذوذ الجنسي). وبمجرد أن يدنس هذا البعير أنفه في خيمة السيرك⁽⁷⁴⁾، فالقصورات كلها تواجه مشكلات.

وكم من المشكلات يمكن رؤيتها أوضح مما حوته المقالة التي كتبها روبرت إدجرتون Robert Edgerton، وجاءت مكملة لمقالة سبورو في المجلد نفسه، وعنوانها "دراسة الانحراف: إنسان هامشي أم إنسان عادي؟" "The Study of Deviance: Marginal Man or Everyman?". عقد إدجرتون

(72) Ibid., p. 336.

(73) The Lawgiver عند الإغريق هو المشرع في مجلس الشيوخ، وعند روسو وفلسفة الأنوار هو من يضبط لبعض القوانين المدنية التي تجسد الانتقال من حالة الطبيعة إلى المجتمع المدني، وموسى عليه السلام هو صاحب الشريعة في العهد القديم واليهودية. (المترجمة)

(74) يقصد بالسيرك حقل الأنثروبولوجيا. (المترجمة)

(75) أستاذ الأنثروبولوجيا الفخرى في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس UCLA. كتب عشرات الكتب وحاج ضد فكرة المجتمعات البدائية المسالمة والمتناهية، مركزاً على صراعاتها. له كتاب مجتمعات معتلة: محاجة ضد التنازع في المجتمع البدائي (1992) Sick Societies: Challenging the Myth of Primitive Harmony (المترجمة)

مراجعة مفيدة وانتقائية إلى حدٍ ما، لدراسة الانحراف في الأنثروبولوجيا والسيكولوجيا والسوسيولوجيا، كما أقحم أيضًا عمله الخاص واللافت عن المتخلفين عقليًا في أميركا والمخثين جنسياً في أفريقيا، بحيث توصل بدوره، وبصورة مفاجئة على أيّ حال - مثل فكرة أضاءت في رأسه من تلقاء نفسها - إلى استنتاج مفاده أن المطلوب لجعل مثل هذا البحث مثمرًا حقًا، هو تصوّر عن الطبيعة البشرية يكون مستقلًا عن السياق - حيث إن "إمكانات السلوك المشفّر وراثيًا التي تشاركتها جمیعًا" هي "أساس ميلنا [العالمي] إلى الانحراف". ويدفع إدجرتون هاهنا بـ"غريزة" الإنسان في الحفاظ على نفسه، وأالية الكراّ والفرّ لديه، وعدم تحمله الملل، ثم يسوق حجّة عن تأليه الأبطال الخارقين⁽⁷⁶⁾ والإباحية البدائية، اعتقدتُ ببراءة أنه استقاها من الأنثروبولوجيا، ليقترح علينا أنه إذا سارت الأمور على ما يرام في الجانب العلمي، فقد يصير في مقدورنا، متى آن الأوان، ألا نحكم على أفرادٍ فحسب، بل على مجتمعاتٍ بأكملها بأنها منحرفة، أو قاصرة، أو فاشلة، أو غير طبيعية:

أهم من ذلك هو عجزنا عن اختبار أيّ افتراض بشأن الصحة النسبية للمجتمع. لقد تأخرت تقاليدنا النسبية في الأنثروبولوجيا عن القبول بإمكانية أن يكون ثمة مجتمع منحرف؛ أي إنه يتعارض مع الطبيعة البشرية [...] لكن فكرة المجتمع المنحرف تعدّ مركبة في تقليد الاغتراب في السوسيولوجيا والحقول العلمية الأخرى، وهي بذلك تشكّل تحديًّا للنظرية الأنثروبولوجية. وبما أننا لا نعرف سوى القليل عن الطبيعة البشرية [...] فلا يمكننا أن نقول: كيف أن مجتمعًا قد فشل، فضلاً عن سؤال: كيف فشل [...] لكن إلقاء نظرة سريعة على القصص المنشورة في أيّ صحفية عن ارتفاع معدلات جرائم القتل والانتهار والاغتصاب وغيرها من جرائم العنف، ينبغي أن تكون كافية لشد الانتباه إلى أن السؤال لا يتعلق بالنظرية فحسب، بل بمسائل البقاء وسط العالم الحديث⁽⁷⁷⁾.

رُفعت الأفلام وجّهت الصحف بهذا القول. لقد أدى الخوف من النسبية، الذي يتجدد عند كل منعطف مثل هوسٍ يذهل الألباب، إلى موقفٍ صار فيه التنوع الثقافي، عبر المكان والزمان، سلسلةً من التعبيرات، بعضها صحي وبعضها الآخر غير صحي، عن واقع مستقرٍ وضمني هو الطبيعة الجوهرية للإنسان، والأنثروبولوجيا، محاولة لرؤية جوهر ذلك الواقع من خلال ضباب تلك التعبيرات. هذا المفهوم الفضفاض للطبيعة البشرية، والتخططي، والمطلوب من حيث المحتوى، والمتوافق مع كل الأشكال بدءًا من ويلسون، ولوريزن، مروراً بفرويد، وماركس، وصولاً إلى بنشام، وأرسسطو (بل يفترض أن أحد العباقرة الذي سأغفل هويته قد لاحظ أن "إحدى السمات المركزية للطبيعة البشرية هي انفصال القضاء")، تحول إلى أساس يُبني عليه فهم السلوك البشري، والقتل، والانتهار، والاغتصاب [...] فيتوقف الانتقاد من الثقافة الغربية نهائًا. ربما بعض الآلهة التي تشبه الآلات أفضل مما لو كانت واعية.

(76) اليوهيميرية Euhemerism مذهب يقول إن الآلهة في الأساطير كانت بشرًا جعلهم الناس أبطالًا وألهة بعد أن ضخّمو سيرتهم بعد مماتهم. (المترجمة)

(77) Robert Edgerton, "The Study of Deviance, Marginal Man or Everyman," in: Spindler (ed.), p. 470.

رابعاً

سأكون أكثر إيجازاً إلى حد ما بشأن الاستحضار الآخر؛ "العقل البشري" الذي دُفع به ضد النسبية مثل صليب يحمي من دراكولا. فيرأيي أن ثمة تمثلاً كبيراً في النمط العام، إن لم يكن في التفاصيل الجوهرية؛ إذ نظر على الجهد نفسه للترويج للغة مثلى عن تفسير "الواقع" ("اللغة الطبيعية"، مثلما أسمها ريتشارد رورتي⁽⁷⁸⁾، مهاجماً الفكرة على أنها خيال علمي)، والخلاف الجامح نفسه بشأن أي لغة يتعلق به: هل هي اللغة عند كلود شانون⁽⁷⁹⁾، أم فرديناند دو سوسيير Ferdinand de Saussure⁽⁸⁰⁾، أم جان بياجيه Jean Piaget⁽⁸¹⁾؟ ثمة الميل ذاته نحو النظر في التنوع على أنه سطح، والعالمية على أنها عمق. والرغبة نفسها في تمثيل تفسيرات المرء ليس على أنها بناءات تُتحمل على موضوعاتها - مجتمعات وثقافات ولغات - في محاولة لفهمها نوعاً ما وإلى حد ما، بل باعتبارها جواهر Quiddities لمثل هذه الموضوعات تُفرض على تفكيرنا.

ثمة اختلافات أيضاً بطبيعة الحال؛ إذ حفظ على عودة الطبيعة البشرية بوصفها فكرة تنظيمية التقدم في علم الوراثة ونظرية الارقاء، وفي حالة العقل البشري جرى الأمر على يد علماء اللغة وعلوم الكمبيوتر وعلم النفس الإدراكي. ترى الأولى النسبية الأخلاقية مصدرًا لجميع عللنا، ويلقي الثاني باللائمة على النسبية المفهومية. ويعتبر الانحياز إلى مجازات خطاب العلاج واستعاراته (الصحة والمرض، طبيعي وغير طبيعي، وظيفة واحتلال) من جهة، ميل إلى الخطابات الإبستيمولوجية (المعرفة والرأي، الواقع والوهم، الصواب والخطأ) من جهة أخرى. لكن هذه الاختلافات لا تكاد تبرز في مواجهة الدافع المشترك نحو التحليل النهائي، أننا وصلنا الآن إلى العلم والتفسير. إن ربط نظرياتك بشيء يسمى بنية العقل هو وسيلة فعالة لعزلها عن التاريخ والثقافة وربطها بشيء يسمى تكوين الإنسان.

وفيمما يتعلق بالأنثروبولوجيا بوصفها كذلك، ثمة اختلاف آخر يولد من باقي الاختلافات على نحو ما، وعلى الرغم من أنه يبدو نسبياً (يجب أن تذروا التعبير) أكثر منه راديكاليًا، فإنه يعمل على دفع نوعي النقاش في اتجاهات متباعدة إلى حد ما، بل متناقضة. فتكتيك الطبيعة البشرية يعيد إلى مركز اهتمامنا أحد مفاهيمنا الكلاسيكية - هو "الانحراف الاجتماعي" - في حين ينتهي تكتيك العقل البشري إلى استعادة

(78) Richard Rorty, "Method and Morality," in: Haan et al. (eds.), pp. 155–176;

ينظر أيضًا:

Richard Rorty, *Philosophy and the Mirror of Nature* (Princeton: Princeton University Press, 1979).

رورتي هو أستاذ الفلسفة والإبستيمولوجيا في جامعة ستانفورد، اهتم بدراسات النفعية والبراغماتية وفلسفة العقل. يجاج رورتي بأن المعرفة شأن داخلي ولغوي؛ أي إن المعرفة متعلقة باللغة والفاعل، حيث إن الموضوعات في العالم الخارجي ليست شرطاً مسبقاً، ومن ثم فاللوقائع متعلقة باللغة والمفردات فهي إذاً مؤقتة. (المترجمة)

(79) عالم رياضيات أمريكي يُعزى إليه تطوير نماذج اللغة الحسابية التي صارت أساس أنظمة المعلومات والإنترنت اليوم. (المترجمة)

(80) لغوي سويسري ورائد من الرواد في القرن العشرين، ترتبط باسمه النظرية البنوية في اللسانيات اليوم. (المترجمة)

(81) عالم نفس وفيلسوف سويسري. أسهم من خلال نظريته في التطور الإدراكي لا سيما عند الأطفال، ومن ذلك كيفية اكتساب اللغة. (المترجمة)

مفهوم آخر - هو الفكر "البدائي (المتوحش، الابتدائي، الأمي)". إن المخاوف المناهضة للنسبية التي تجمع حول أغذار السلوك في أحد الخطابين، تجمع في الخطاب الثاني حول أغذار الإيمان.

لقد تجمّعت، على وجه التحديد، حول معتقدات "العقلانية" (أو "عامة")، أو "قبل منطقية"، أو "عاطفية" أو "غير إدراكية"، بمفردات الحاضر). ففي حين كانت ممارسات مزعجة مثل صيد الرؤوس، والعبودية، [...]، وتقيد القدم، هي التي دفعت علماء الأنثروبولوجيا إلى الالتفاف حول رأية الطبيعة البشرية، يحدوهم الانطباع أنها الطريقة المناسبة لتسوية المسافة الأخلاقية المستحبة إزاءها، فإن تصورات مستبعدة مثل جوهر السحر، ووصايا الحيوانات، والملوك الآلهة، والتنين ذي القلب الذهبي والقرن في قاعدة رقتها (وأنا هنا أستبق مثلاً سأفصل فيه بعد قليل)، هي التي جعلتهم يتجمّعون حول رأية العقل البشري، يحدوهم الانطباع أنها الطريقة المناسبة للدفاع عن التشكّك الإمبريقي الذي تبنّوه بشأنها. ولنست الطريقة التي يتصرف بها المختلف ثقافياً مصدر القلق الأكبر، بل الكيفية التي يفكّر بها، وهذا أسوأ.

وهنا أيضًا ثمة عدد كبير نسبياً من المنظورات العقلانية أو العقلانية الجديدة في الأنثروبولوجيا بدرجاتٍ متفاوتة من الوضوح، والحججية، والاتساق، والشعبية، ليس متّوافقاً تماماً أحدها مع الآخر؛ إذ يستدعي بعضها ثوابت شكّلية تسمى عادةً الكليات الإدراكية، ويستدعي بعضها ثوابت تنمية عادة ما تسمى المراحل الإدراكية، وبعضها يستدعي ثوابت إجرائية عادة ما تسمى العمليات الإدراكية. بعضها بنوي، وبعضها يتبع تقليد كارل يونغ، وبعضها على خطى بياجيه، وبعضها يتبع آخر الأخبار الواردة من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT، أو مختبرات بل Bell Labs⁽⁸²⁾، أو كارنيجي ميلون Carnegie–Mellon⁽⁸³⁾. وكلها تسعى إلى شيء ثابت مفاده أننا حين نصل إلى أرض الواقع، نصون العقل من الغرق.

ومن ثمّ، فإن ما تشاركه هذه الخطابات ليس محض اهتمام بآدائنا العقلي فحسب، بل ما يشبه اهتماماً بتركيبة البيولوجية، وهو أمر لا جدال في فائدته، سواء في حد ذاته أو في تحليل الثقافة. وإذا لم تكن كل الاكتشافات المفترضة لما أسميناه "العلوم الإدراكية" اكتشافات حقيقة، وبعضها من دون شك سيكون، وسيغير على نحو بالغ طريقة تفكيرنا بشأن الكيفية التي نفكّر بها، وكيفية تفكيرنا فيما نفكّر فيه. ما تشاركه بعد ذلك، من كلود ليفي-ستروس إلى رودني نيدهام Rodney Needham⁽⁸⁴⁾، بالعودة إلى الوراء، ليس من دون جدال في فائدته، ألا وهو النظرة التأسيسية للعقل. وتعني وجهة نظر ترى العقل - مثله مثل "وسائل الإنتاج" أو "البنية الاجتماعية" أو "التبادل" أو "الطاقة" أو "الثقافة" أو "الرمز" التي تنتهي إلى خلاصة المقاربات الشاملة في النظرية الاجتماعية (ومثل "الطبيعة البشرية" بطبعية الحال) - مصطلحاً لا يُعلى عليه في التفسير، والنور الذي يسطع وسط ظلمة النسبية.

(82) مختبرات لابتكارات وبراءات الاختراع مقرّها في نيوجرسي في الولايات المتحدة. (المترجمة)

(83) جامعة خاصة للأبحاث والتطوير مقرّها في بنسلفانيا في الولايات المتحدة، تستقطب المبدعين والمبتكرين في المجالات التقنية. تأسست عام 1912. (المترجمة)

(84) أنثروبولوجي إنكليزي وأستاذ الأنثروبولوجيا في أكسفورد. عُرف باهتمامه بدراسات القرابة وبحماسه لبنيوية كلود ليفي-ستروس قبل أن يتقدّها لاحقاً، متقدّاً أيضاً ما أسماه رؤية ثنائية تعيّن على أفكار الأنثروبولوجيين. (المترجمة)

سواءً أكان الخوف من النسبية، الذي يشبه عدو البطل الخارق بـ"ألف وجه" (The Anti-hero with a Thousand Faces)، هو الذي يوفر جزءاً مهماً من الرسم للعقلانية الجديدة ويعمل مبرراً رئيساً لها، كما حدث في حالة الطبيعوية الجديدة Neo-naturalism، فليس من الصعب ملاحظته من خلال المجموعة الجديدة الممتازة من المواقف المناهضة للنسبية الواردة في الكتاب الذي حرره مارتن هوليس وستيفن لوكيس (Stephen Lukes) بعنوان *العقلانية والنسبية Rationality and Relativism* (1987)، ومعه دراسة جريئة صُممَت خصيصاً لدفع الآخرين إلى المستوى المراد من السخط. ولد الكتاب في خضم ما سُمي "جدل العقلانية" (The Debate on Rationality)، الذي يبدو أن قصص إدوارد إيفانز-بريتشارد Edward Evan Evans-Pritchard (1890-1973)، وأمور أخرى غيرها، قد أطلقته في العلوم الاجتماعية البريطانية وفي قسم معتبر من الفلسفة البريطانية (جدل "هل ثمة حقائق مطلقة يمكن مقاربتها تدريجياً بمرور الوقت من خلال عمليات عقلانية، أو أن جميع أنماط التفكير وأنظمته صالحة على قدم المساواة إذا نظر إليها من داخل إطارها المرجعية المتسقة داخلياً؟") (1990). لذلك فهو يعطي، على نحو ما، كل جوانب مقوله العقل في خطر! وتبداً افتتاحية المحررين بعبارة كأنها دعوة إلى إقامة المدارس على طريقة كرومول: "إن إغراءات النسبية دائمة ومتشربة [...] وطريق المتعة والإغراء إلى النسبية [...] مهمد بمزاعم مقنعة" (1991).

ويستجيب علماء الأنثروبولوجيا الثلاثة في الكتاب بحماسٍ لهذه الدعوة لإنقاذهما من أنفسنا. فيجاج إرنست غيلنر (1925-2014) بأن الفكرة التي مفادها أن آخرين لا يؤمنون بما نؤمن نحن، أحفاد غاليليو، بشأن كيفية تجميع الواقع معًا ليست حجّة ضد الفكرة القائلة إن ما نؤمن به لا يمثل "الرؤى الوحيدة الحقيقة" المنشودة. بل يعتقد ذلك متأكداً حتى حين يبدو له أن هؤلاء الآخرين، بمن فيهم سكان الهيمالايا، لم يعودوا يعارضونه. ويدافع روبن هورتون (Robin Horton) عن "نواة إدراكية مشتركة"، و"نظريّة أولية"

(1993) في الدراما، لا يشير عدو البطل الخارق إلى منافسه الشرير بالضرورة، بل إلى بطل خارق لا يحتمل إلى كونه خيراً، باعتبار أنه يتصرف لمصلحة الشخصية غالب الوقت، بصورة غير أخلاقية بالنسبة إلى أخلاقيات الجمهور في كثير من الأحيان، وأحياناً يصبح البطل الخارق ويسبب له المتابع مثل "لوكى" شقيق "ثور" بالتبني في سلسلة أفلام Thor، لذلك فهو، على عكس البطل الخارق، شخصية صراغية. (المترجمة)

(86) Hollis & Lukes (eds.).

(87) ثمة أيضاً بعض المقالات التي تُعد أكثر اعتدالاً وتقسم الاختلافات بينها، كتبها كل من إيان هاكينغ وتشارلز تايلور ولوكيس، لكن أولاهما فقط يبدو خالياً حقاً من الإنذارات المتخيلة.

(88) Bryan Wilson, *Rationality* (Oxford: Blackwell, 1970); Allan Hanson, "Anthropologie und die Rationalitätsdebatte," in: Hans Peter Duerr (ed.), *Der Wissenschaftler und das Irrationale*, vol. 1 (Frankfurt am Main: Syndikat, 1981).

(89) أنثروبولوجي إنكليزي وأستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية في أكسفورد ورائد من الرواد. اشتهر بأبحاثه الميدانية عن قبائل الأزاندي والنوير في السودان. عُرف عنه قطعه مع الوضعية وإصراره على بحوث الميدان، وعدم إيمانه بعلم يختص بالمجتمع تحكمه القوانين Nomothétiques من دون إيلاء أهمية لحكايا الرمز ولطبيعة المجتمعات وظواهرها المتباينة. (المترجمة)

(90) الاقتباسات الواردة مأخوذة من غالٍ الكتاب، وهي تعكس محتواه على الأقل.

(91) Hollis & Lukes, p. 1.

(92) Ernest Gellner, "Relativism and Universals," in: Hollis & Lukes (eds.), pp. 181–200.

(93) Horton.

هورتون هو فيلسوف وأنثروبولوجي إنكليزي. تركّز اهتماماته في أنثروبولوجيا الأديان، لا سيما في أفريقيا التي عاش فيها سنوات طويلة. (المترجمة)

كونية من الناحية الثقافية وذات اختلافات ضئيلة عن العالم بوصفه مليئاً بموضوعات دائمة ومتوسطة الحجم تترابط بفعل مفهوم "الدفع والجذب" في السبيبية، وخمس ثنائيات مكانية (يسار - يمين، أعلى - أسفل ... إلخ)، وثلاثية زمنية (قبل - في الوقت نفسه - بعد)، واثنين من الفروق الفئوية (بشري - غير بشري، ذات - آخر)، ووجود كل ذلك دليل على أن "النسبية محكوم عليها بالفشل، في حين أن الكونية قد تنجح يوماً ما" ⁽⁹⁴⁾.

لكن دان سبيربر ⁽⁹⁵⁾، كان أكثرهم ثقة بأرضيته العقلانية (منظور جيري فودور Jerry Fodor ⁽⁹⁶⁾ الحسابي عن التمثلات العقلية)، ويملك رؤية وحيدة حقيقة خاصة به (هي أن "لا وجود لواقع غير حرفي")، لذلك فهو من يبني الهجوم الأقوى بين الثلاثة. فيقول إن النسبية ماكرة لعوب (فتجعل "الإثنوغرافيا غير قابلة للتفسير، وعلم النفس بالغ الصعوبة")، لذلك فهي ليست موقعاً غير قابل للدفاع عنه فحسب، بل لا موقف لها على الإطلاق؛ فأفكارها أنصاف أفكار، ومعتقداتها شبه معتقدات، وافتراضاتها شبه افتراضات. فـ"الشعارات النسبية" مثل عبارة "الشعوب التي تتبع إلى ثقافات مختلفة تعيش في عوالم مختلفة" ليست معتقدات واقعية، لأنها تشبه قصة التنين ذي القلب الذهبي والقرن عند قاعدة رقبته، حين دعا أحد مخبريه المسميين من الـ"دورزي" Dorze ⁽⁹⁷⁾ ببراءة، أو ربما ليس ببراءة، إلى تعقب الناس وقتلهم (وحنرًا منه من الحقائق غير الحرافية فقد رفض). بل هي تمثلات نصف متشكّلة وغير محددة، وبدائل ذهنية مؤقتة تتجه عندما نحاول، ونحن أقل حنرًا من أجهزة الكمبيوتر، معالجة معلومات أكثر مما تسمح به قدراتنا المفهومية المتأصلة. قد تكون هذه التثنين ذات القلوب البلاستيكية وبلا قرون مفيدة في بعض الأحيان؛ فتارة تملأ الفجوات إلى أن نتمكن من تسرير قوتنا الإدراكية، وهي تارة أخرى لعبة ممتعة نسلّى بها ونحو ننتظر ذلك، بل هي من حين إلى آخر "مصادر إيحاء في التفكير الإبداعي [الحقيقي]"، لكنها ليست حقيقة حتى في أعين من يدافعون عنها، لأنهم لا يفهمونها ولا يستطيعون فهمها. إن هي إلا كلام أكاديمي، متطور إلى حدٍ ما، من النوع الامتثالى، والسطحى، والمضلّل، وـ"المراغ في تأويلاه"، والأناى:

أفضل دليل ضد النسبية [...] هو نشاط علماء الأنثروبولوجيا في حد ذاته، في حين أن أفضل دليل على النسبية [هو] في كتابات علماء الأنثروبولوجيا [...] عندما يعيد علماء الأنثروبولوجيا بناء خطواتهم [في أعمالهم]، فإنهم يحولون الحدود الثقافية الضحلة وغير المتطرفة التي لم يجدوا صعوبة في عبورها [في بحوثهم الميدانية]، إلى فجوات لا يُسْبِرُ

(94) Ibid., p. 260.

(95) Dan Sperber, "Apparently Irrational Beliefs," in: Hollis & Lukes (eds.), pp. 149–180.

سبيربر هو أنثروبولوجي فرنسي وعالم اجتماعي وباحث في العلوم الإدراكية. انتقد البنوية واتجه نحو الرمزية من البوابة الإدراكية؛ أي دور الإدراك في الظواهر الثقافية. ترجم له إلى اللغة العربية كتابه مع ديدر ويلسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك *La Pertinence: Communication et Cognitio*، عن دار الكتاب الجديد المتحدة في بيروت عام 2016. (المترجمة)

(96) فيلسوف ولغوي أمريكي، اشتهر بالوظيفية العقلية ومفهوم نمطية العقل، وقال إن العمليات العقلية والتفكير يعملان في صورة حسابات تتشكل التمثلات التي تمثل لغة الفكر، وهو عنوان كتابه الأشهر *The Langage of Thought*. (المترجمة)

(97) إثنية تقطن إثيوبيا. (المترجمة)

غورُها، وبذلك يحمون إحساسهم بالهوية، ويزودون جمهورهم من الفلاسفة والناس العاديين بما يريدهؤلاء سمعاه تماماً⁽⁹⁸⁾.

باختصار، سواء تعلق الأمر بالإدراك السائد (قطع النظر عن الكبد وعيشه والعرافيين المسمَّمين، فلقد فهمنا الأمور على النحو الصحيح في النهاية)، أو اليأس المسكوني Ecumenicalism⁽⁹⁹⁾ (قطع النظر عن أنماط تفسيرية أكثر حداثة وتتنوعاً، مثل علم الجينوم، ترى أن لكل شخص التصور نفسه عن العالم)، أو العلموية العدوانية (في أن ثمة أشياء تمثل أفكاراً بالفعل مثل "المواقف الافتراضية" و"المعتقدات التمثيلية"، وأشياء تشبه الأفكار مثل أن "هناك تيّناً على الطريق" و"تعيش الشعوب من ثقافات مختلفة في عالم مختلفة")، فإن إعادة بعث العقل البشري بوصفه نقطة ثابتة في عالم مت حول تُبطل مفعول النسبية الثقافية عبر تجريد سلاح التنوع الثقافي من قوته. وكما في حالة "الطبيعة البشرية"، فإن تفكير الآخرين هو ثمن الحقيقة. وربما كان ذلك صحيحاً، لكنه ليس ما يوحى به تاريخ الأنثروبولوجيا، أو المواد التي جمعتها، أو المثل العليا التي حرّكتها؛ وليس النسبيون وحدهم من يخبرون جمهورهم بما يودون سمعاه. وثمة بعض الثنائيين - "النادرة" - التي تستحق الاستقصاء.

خامساً

إن استقصاء الثنائيين، لا تدجينها أو إغراقها في بحر النظرية، هو كل ما تدور حوله الأنثروبولوجيا. على الأقل، هذا كان موضوعها مثلاً أفهمها أنا، بما أنني لست عدماً ولا ذاتياً، وامتلكت، كما ترون، بعض الآراء الحازمة بشأن ما هو واقع وما ليس واقعاً، وما هو جدير بالثناء وما هو غير ذلك، وما يُعدّ معقولاً وما لا يُعدّ كذلك. لقد سعينا [يقصد علماء الأنثروبولوجيا]، بمقدار من النجاح، إلى إبقاء العالم في حالة من اللاتوازن؛ سحبنا البُسط، وقلينا موائد الشاي، وأطلقتنا الألعاب النارية. فكان من مهمات الآخرين أن يبْثُوا الطمأنينة، ومهمنا نحن أن نقلب الاستقرار. سعينا خلف الأسترالوبيتكس Australopithecines⁽¹⁰⁰⁾، والماكرين، والمسالمين، ونُصب المغيليث⁽¹⁰¹⁾؛ نبع الاستثنائي، ونتجول في الغريب. كنا تجّار الدهشة.

لقد أفرطنا، من دون شك، في هذا الاتجاه؛ فحوّلنا الأفكار الذاتية إلى أغذى، والأغذى إلى غموض، والغموض إلى ترهات. لكنّ هذا التعاطف مع الذي لا يمتثل ويأبى أن ينسجم، والواقع الذي تغيّر موقعه، قد ربطنا بالموضوع الرئيس للتاريخ الثقافي في "العصر الحديث"، لأن ذلك التاريخ قد تألف من حقول فكرية تعاقبت وتغيّر عليها، واحداً تلو الآخر، أن تكتشف كيفية العيش من دون اليقين الذي أطلقها أول مرة. الواقع الفجّ، والقانون الطبيعي، والحقيقة الضرورية، والجمل الفائق، والسلطة المحايثة، والوحى

(98) Sperber, p. 180.

(99) الحركة التي سعت إلى توحيد المسيحيين والتقرير بين الكنائس المسيحية. (المترجمة)

(100) في نظرية التطور، هم أشباه البشر Hominins وأسلاف الإنسان الأوائل منتصبو القامة. (المترجمة)

(101) أحجار متراصة ومختلفة الأحجام والأسkal بعضها يشكل نصباً حجرياً غير منتظمة تدعى بهذا الاسم، ويعتقد أن البشر الأوائل بنوها. (المترجمة)

المتفرد، حتى الأن الداخلية في مواجهة العالم الخارجي، تعرضت جميعها لهجوم شديد، بحيث تبدو اليوم بساطةً مفقودة من ماضٍ أقل إنهاكاً. لكنَّ العلم والقانون والفلسفة والفن والنظرية السياسية والدين والإصرار العنيد على الحسَّ السائد صمد جميعها، ولم يُدْعَ من الضروري إحياء البساطة.

أعتقد أنَّ التصميم على ألا نتشبث بما نجح في السابق وأوصلنا إلى ما نحن فيه اليوم، وما لم يُعُد اليوم يعمل بنجاح ويُلقي بنا في مأزق متكرر، هو ما يجعل العلم يتحرك قدماً. نجحت الفيزياء الأرسطية بالقدر الكافي على الرغم من المفارقات الرواقية حين كان عداء الماراثون هو الأسرع. ونجحت ميكانيكا نيوتن بالقدر الكافي على الرغم من الإرباك الذي يُحدثه الفعل عن بعد ما دامت الأجهزة التقنية لا يمكنها أن تقودنا إلا إلى مسافة قصيرة ومعينة من عالمنا الذي ندركه بالحواس. ولم تكن النسبية - الجنس، والديالكتيك، وموت الإله - هي التي أنهكت الحركة المطلقة والفضاء الإقليدي والنسبية الشاملة، بل ظواهر شاردة، وحزم موجية وقفزات مدارية، وفقت أمامها عاجزة. كما لم تكن النسبية - الذاتية الهيرمينوطيقية المراوغة - هي التي أنهكت (بالدرجة التي أنهكت بها) الكوجيتو الديكارتي، ووجهة نظر الويجربين في التاريخ، ووجهة النظر الأخلاقية العزيزة جداً على إليوت وأرنولد وإيمرسون¹⁰²، بل كانت الواقع الغربي هي التي أخرجت مقولاتها، مثل خطوبية الرضع والرسومات التي ليست وهمية.

وسط هذا الابتعاد عن الانتصارات القديمة التي التهمتها اللامبالاة، والاكتشافات اللحظية التي تحولت إلى حواجز وعقبات، أَدَّت الأنثروبولوجيا، في أيامنا هذه، دوراً طليعياً. فقد كنا أول من أصرَّ على عدد من الأشياء، مثل أنَّ العالم لا ينقسم إلى أتقياء ومؤمنين بالخرافات، وأنَّ ثمة منحوتات في الأدغال ولوحات في الصحاري، وأنَّ النظام السياسي ممكِّن من دون سلطة مركبة، وأنَّ ثمة عدالة مبدئية من دون قواعد مقتنة، وأنَّ قواعد العقل لم تتحدد في اليونان، وأنَّ تطور الأخلاق لم يكتمل في إنكلترا. أَهُم من ذلك أَنَا كنا أول من أصرَّ على أننا نرى حياة الآخرين من خلال عدسات وضعنا الخاص، وأنَّهم ينظرون إلى حياتنا من خلال عدسات وضعهم الخاص. ولا عجب أن يتهمي البعض بسبب ذلك إلى الاعتقاد بأنَّ النهاية حَلَّتْ، وأنَّ الأنانية الذاتية دُنِتْ، وأنَّ العقل والحكم، وحتى إمكانية التواصل المطلقة قد أَفَلَ جميعها. لقد أَدَّتْ إعادة تموض الآفاق وتلاشي مركبة المنظورات مثل هذا الأثر من قبل. ومثلاً ثمة روبرتو بيلارمين⁽¹⁰²⁾ في كل واحد منكم، لحظ أحدهم أنَّ ثمة عقلاً دفع البولينزيين إلى الإبحار بعيداً عن مرأى الأرض في زوارق من جذع الشجر.

وذلك كله إنما يمثل أقصى ما أمكننا فعله، وفي ضوء قدراتنا. وسيكون من المؤسف، على ما أعتقد، بعد أن بدأنا المسافات التي أنسأناها والأماكن الأخرى التي حددها تشعنا بالقلق، أن نعود إلى الأغاني القديمة والقصص العتيقة حتى نغيِّر إحساسنا بالمعنى وإدراكتنا للإدراك، على أمل أن الحاجة

(102) أسقف إيطالي وكاردينال في الكنيسة الكاثوليكية عاصر الفترة التي شهدت أوج ما يمكن تسميه الصراع الديني العلمي على الحقيقة. اشتهر باقتناعه وجوب أن يتافق الدليل العلمي مع الكتاب المقدس، لذلك وقف في وجه غاليليو غاليلي الذي عرض أمام محاكِم التفتيش في القرن السابع عشر، ورفض تدريس نظرية كوبينيكوس عن أن الأرض كوكب من الكواكب وليس مركبها وأن الشخص ثابتة والكوكب تدور حولها. (المترجمة)

السطحية فحسب هي التي تتغير، وأننا لن نسقط من حافة العالم المسطحة⁽¹⁰³⁾. إن الاعتراض على مناهضة النسبية ليس مردّه رفضها مقاربة "كيف تنظر إلى ما تنظر إليه" الإدراكية، أو رفضها مقاربة "عندما تكون في روما تصرف كالرومان" When in Rome, do as the Romans do⁽¹⁰⁴⁾ الأخلاقية، بل لأنها تخيل أنه لا يمكن مواجهتهما إلا إذا وضعت الأخلاق فوق الثقافة والمعرفة فوق الأخلاق والثقافة معًا. وهذا مما لم يُعد ممكناً إذا نظرنا من زاوية الأشياء التي ينبغي لها أن تكون على هذا النحو. فلو أردنا حقائق الوطن، لكننا بقينا في الوطن⁽¹⁰⁵⁾.

References

المراجع

الأجنبية

- Angeloni, Elvio (ed.). *Anthropology*. Guilford: Dushkin Publishing, 1983.
- Booth, Wayne. "A New Strategy for Establishing a Truly Democratic Criticism." *Daedalus*. no. 112 (1983).
- Defaux, Gerard (ed.). *Yale French Studies*. vol. 64. New Haven: Yale University Press, 1983.
- Duerr, Hans Peter (ed.). *Der Wissenschaftler und das Irrationale*. vol. 1. Frankfurt am Main: Syndikat, 1981.
- Edward Westermarck: *Essays on His Life and Works*. Acta Philosophica Fennica 34. Helsinki: The Philosophical Society of Finland, 1982.
- Empson, William. *Collected Poems*. New York: Harcourt, Brace and World, 1955.
- Gass, William. "Culture, Self, and Style." *Syracuse Scholar*. no. 2 (1981).
- Gellner, Ernest. *Spectacles and Predicaments*. Cambridge: Cambridge University Press, 1979.
- Goody, Jack. *The Domestication of the Savage Mind*. Cambridge: Cambridge University Press, 1977.
- Haan, Norma et al. (eds.). *Social Science as Moral Inquiry*. New York: Columbia University Press, 1983.
- Harris, Marvin. *The Rise of Anthropological Theory*. New York: Crowell, 1968.
- Hatch, Elvin. *Culture and Morality: The Relativity of Values in Anthropology*. New York: Columbia University Press, 1983.
- Herodotus. *History of Herodotus*. New York: Appleton, 1859–1861.

(103) هذه كنایة عن أن رفض دراسة الاختلاف، لا يعني عقلاً كورياً؛ لا بل محاصرة للروح النقدية مثل التي سادت القرون السابقة، حين فضل الناس الإيمان بأن الأرض مسطحة على أن يقروا في رأي مخالف. ما يعني أن التمسك بنظرية واحدة وكبح الروح النقدية قد يعني عودة العقل القهقرى خوفاً مما يمكن اكتشافه. (المترجمة)

(104) تعني العبارة مثلاً يتضح من معناها الحرفي، أن المرء يتطبع بطبع المكان أو البلد الذي يزوره. وهي إشارة ترمز إلى "النسبية" الثقافية للعادات والأعراف والسلوكيات وقواعد الأخلاق بين الثقافات المتساوية. الرؤية المعاكسة في هذه الحالة هي نمط من الإلاطقية الأخلاقية التي ترى أن ثمة معايير فرقية أو مطلقة لتقييم أخلاقية الفعل. (المترجمة)

(105) يقصد أن جتي المجتمعات، التي اضطلت الأثربولوجيا بدراستها والكشف عنها، قد خرج من قيمته، فلم يُعد من الممكن الهرب منها أو إنكار وجودها أو إعادة الوضع إلى ما كان عليه. (المترجمة)

- Hollis, Martin & Steven Lukes (eds.). *Rationality and Relativism*. Cambridge: MIT Press, 1982.
- Jarvie, Ian. "Rationalism and Relativism." *The British Journal of Sociology*. no. 34 (1983).
- Johnson, Paul. *Modern Times: The World from the Twenties to the Eighties*. New York: Harper & Row, 1983.
- Kluckhohn, Clyde (ed.). *Culture and Behavior*. New York: Free Press, 1962.
- Lakatos, Imre. *The Methodology of Scientific Research*. Cambridge: Cambridge University Press, 1976.
- Midgeley, Marry. *Beast and Man: The Roots of Human Nature*. Ithaca: Cornell University Press, 1978.
- Popper, Karl. *Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge*. London: Routledge and Kegan Paul, 1963.
- _____. *Objective Knowledge: An Evolutionary Approach*. Oxford: Clarendon Press, 1972.
- Rorty, Richard. *Philosophy and the Mirror of Nature*. Princeton: Princeton University Press, 1979.
- Scheffler, Israel. *Science and Subjectivity*. Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1967.
- Spindler, George (ed.). *The Making of Psychological Anthropology*. Berkeley: University of California Press, 1978.
- Stocking, George. "Afterword: A View from the Center." *Ethnos*. no. 47 (1982).
- Tiger, Lionel & Joseph Sepher. *Women in the Kibbutz*. New York: Harcourt Brace Jovanovich/ Harvest, 1975.
- Villey, Pierre (ed.). *Les Essais de Michel de Montaigne*. Paris: Universitaires de France, 1978.
- Williams, Bernard. *Descartes: The Project of Pure Enquiry*. Harmondsworth: Penguin, 1978.